



BOBST LIBRARY

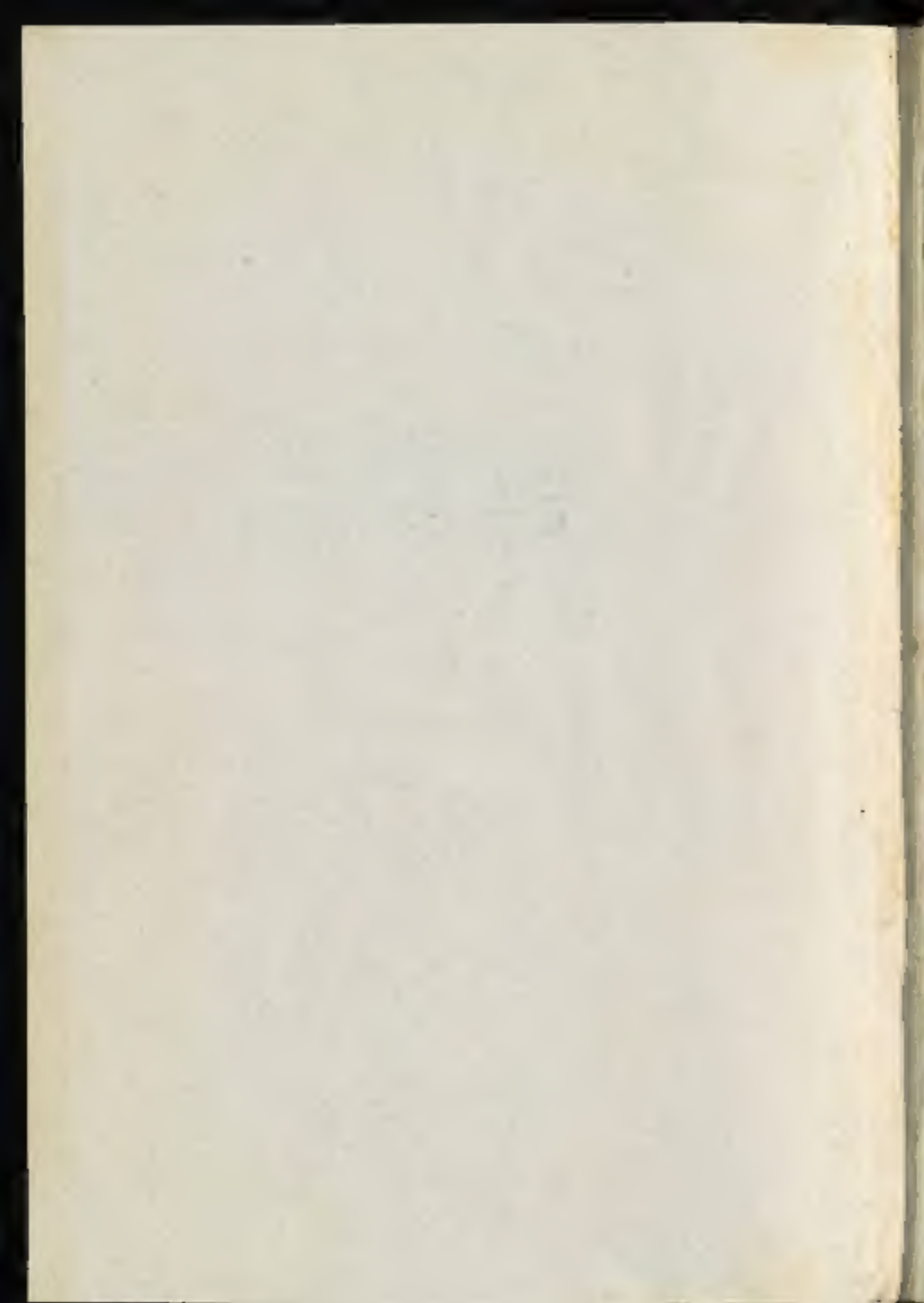


3 1142 02885 2401



NEW YORK
UNIVERSITY
LIBRARIES

GENERAL UNIVERSITY
LIBRARY



JAR- 8227. For K. H. W.

عمر فاخوري

١٨٩٦ - ١٩٤٦ م.

١٣١٤ هـ - ١٣٦٦ هـ.

العصر الذي وُلد فيه عمر فاخوري هو عصر عودة الأدب العربي ، بعد الذبول ، الى نضارة الحياة .

هو عصر تَلَفَّت العرب الى روائع مجدهم الأدبي القديم أيام أعطوا الدنيا أبا عثمان الجاحظ وأبا الفرج الأصفهاني والمنيني والمعري وابن خلدون .

وهو عصر اتصال العقل العربي الحديث بالأدب والفكر الغربيين : بفولتير روسو وبلزاك وأفانول فرانس ورومان رولان وتولوستوي وغوركي .

وهو الى ذلك عصر اليقظة العربية الحديثة ، عصر نضال العرب القومي ، عصر الثورات الوطنية التي اطلقها كل شعب

عربي في سبيل التحرر من نير الاستعمار العثماني التركي ، ونير
الاستعمار الغربي ، طلباً للاستقلال التام والسيادة ، وتحقيق
مجتمع ديموقراطي تقدمي يقوم على أسس من العدالة والحرية
والأخاء والمساواة ، ويواكب الحضارة في سيرها العصري
الصاعد .

وهو عصر بلوغ الاستعمار أقصى مراحل ، وعصر بدء انهيار
الاستعمار وقدمير أقيص صورته : النازية والفاشية .

وهو عصر اشتراق فجر الاشتراكية ؛ وامكان بناء سلام
عالمي دائم وتجسيد أبهى آماني البشرية في حياة مطمئنة خلقة
بالبشر ، لا تفسدها الحروب ولا الاستعباد ولا العبودية ، ولا
النهب ولا البؤس ولا الخلق ، حياة يفتح فيها العلم مقالق اسرار
الكون وقينع المعرفة أينع ثمارها في اسعاد الكائن الإنساني .

واننا إذ نتتبع تراث عمر وشخصيته ومواقفه ، نرى أولاً
من ذلك كله في أدبه وفكره وحياته . ونرى ان ليس في
أدبائنا المحدثين من كان مثله ابناً لعصره حقاً ، يعيش في عصره
خير ما في الماضي وأروع ما في الحاضر وأبهج ما في المستقبل .
ويعيش ذلك كله بروح مجدٍ وأصيل ، شغف بالأدب والفن
والفكر وأراد لهاغماً كالحياء لا يحد ولا ينقطع ، وأحب
الشعب وأحسن همومه ومطامحه في أعماقها وأبعادها ، وأوتي عيناً
ينفذ بها الى أقصى الأغوار في لفتات بارعة خاطفة ، كما أوتي

فثنية معتبر عبقرى ، ودعاية مآخر لا حموضة في سخره ، بل
الفرح كله بالحياة والإيمان بالإنسان ومصيره .

ولم يكتب عمر فاخوري كتباً فقط بل حوّل الكتب الى
عمل . ربّى بأدبه وشخصيته ومواقفه جيلاً من الشباب الحر
الواعي الجريء .

فإذا فلتشنا عن أديب يكون هو أديبنا حقاً على المقياس
اللبناني ، والمقياس العربي ، والمقياس العالمي ، في آن ، فلن
يكون هو غير عمر فاخوري .

ومن ثم لم يكن جائزاً ان تتوارى كتبه أو يصعب منالها ،
بل وجب ان تبقى موفورة متيسرة ، في طبعة صحيحة متقنة ،
يحد إليها القارئ العربي سبيله متى شاء وفي حيث شاء .

وهذا ما أردنا اليه بالعزم على اخراج هذه الطبعة لمؤلفاته
كاملة ، علّنا بذلك نؤدي بعض حق علينا للكاتب العلم ،
وللقارئ معاً .

ولم نرَ ضرورياً ان تتبع الترتيب التاريخي فبدأنا برء الباب
المرصود ، لأنه في رأينا أغنى آثار عمر بالدلالة على فثنية المعبر العبقرى ،
وعلى أعماق المحرضات التي بقيت قرّج نفسه ، ودفعت به في
المرحلة الاخيرة من حياته الى مواقف فكرية نضالية ظنت
انقطاعاً ، وما كانت إلا امتداداً لحقيقة سيرته ومهمه .

على اننا لا نريد ، ايها القارئ ، ان ندخل في هذه المقدمة بينك وبين عمر ، ندرس ونحلل . فان لم يكن بدّ فلا بأس بهذا التعريف المختضب في سيرته وآثاره ، ثم نخلي بينك وبينه تطيف معه بهذا الباب المرصود وتحس ما يعصف بنفسه من شوق إنساني عميق الى النفلت ، عبر الفن ، من الواقع الخائت .



أبصر عمر النور سنة ١٨٩٦ ، (١٣١٤ هـ) في بيروت في أسرة من أعرق الاسر البيروتية ، التي اشتهرت بالعلم .

وفي تلك السنة ، أو قبلها بسنة ، كان أحد أفاضل العصر ، الشيخ احمد عباس الازهري ، يؤسس مدرسته التي سماها « الكلية العثمانية » وأبى الناس أن يذكروها إلا باسم « مدرسة الشيخ عباس » .

فلما بلغ عمر حد الصبى ألحقه اهله بهذه المؤسسة الوطنية حيث استيقظ يقطته البكر على الشعور بالعروبة ، وبالكراه للسيطرة التركية والحكم العثماني .

وكان من رفاقه في المدرسة الشاعر عمر حمد ، والأديب عبد الغني العريسي « وسواهما من الشهداء الذين أودى بهم ، قيا بعد ، حبيل الجلاد التركي » وكاد يودي بعمر نفسه . ذلك انه ما كاد يتم دراسته الاولى وينتقل الى معهد جامعي في بيروت ،

وينتمي الى بعض الحركات السيامية السرية كـ «حزب الاستقلال»
و «الجمعية العربية الفتاة» ، حتى انطلقت مدافع الحرب الكونية
الاولى ، فألف بكر مؤلفاته : «كيف ينهض العرب» ، فتعرض
لسخط الاتراك وأوشك أن يقع في قبضة الديوان العرفي الرهيب
في عاليه ، لولا صفر سنه .

وشد ما كان يأسف عمر كلما ذكر هذا الكتاب لأن أهل
أثقفوه جملة كي لا يظفر الاتراك بنسخة منه . فكان عمر يقول
باسلوبه الظريف : «أراد الاتراك إعدامي» فافتداني المرحوم
ابو عمر (يعني والده) بأن أعدم الكتاب» (١)

ثم انتهت الحرب بآلم يتوقعه عمر نظراً لما قدمه الحلفاء من
وعود مبذولة في الفاظ معسولة . فما رأى جيوشهم تطأ
شواطئ لبنان وسوريا حتى انبرى لمهاجمتهم بسلح القلم عاملاً
في الشر مع جمميات ذلك العهد ومنها جمعية «عمر الاكبر» (٢) ،
فرع «المنتدى العربي» في الآستانة .

فدعته الحكومة الفيصلية الى دمشق ليتولى تحرير جريدة
«الماصية» فيها ، فلبى الدعوة ، وكان من أقرب أصدقائه يوسف
العظمة بطل ميسلون وشهيدها .

(١) حدثني الكاتب المفضل الأستاذ محمود امين العالم أنه رأى نسخة من
هذا الكتاب في دار الكتب المصرية في القاهرة . وقد بدأنا السعي
لتصويرها أو استنساخها .

(٢) المراد : عمر بن الخطاب ، ثاني الخلفاء الراشدين .

ثم رأى أن يدرس الحقوق ، فسافر سنة ١٩٢٠ الى باريس ليعود منها بعد سفرتين مجازاً في الحقوق سنة ١٩٢٣ ، متضلماً من الفرنسية موقور الاطلاع على آدابها ، قد انصهر في نفسه ما هو خبير وجميل من ثقافة الشرق والغرب ، وعرف ان في اوروبا نفسها من يكافحون الاستعمار ، ويتخذون شعارهم : ان شعباً يستعبد شعباً آخر ، لا يستطيع أن يكون حراً !

وفي بيروت ، لبث لحظة يكتب في السيامة وفيما يسمى موضوعات الأدب الصرف . لكن شاقته دمشق فانتقل اليها واسهم في تحرير صحيفتي «الميزان» و «المفيد» .

على انه عاد في سنة ١٩٢٥ الى بيروت فاسهم في تحرير جريدة « الحقيقة » ، وكان يوقع مقالاته فيها بامضاء « مسلم ديمقراطي » .

وأصدر في هذه السنة كتابه : « آراء غربية في مسائل شرقية » ، وهي أبحاث ترجمها عن طائفة من المستشرقين لم يُعنه الغرض ولا التعصب كل المعى .

وفي السنة التالية (١٩٢٦) أصدر كتابه « آراء آثول فرانس » : كلمات اختارها من آثار الكاتب الفرنسي المشهور ونقلها الى العربية (١) .

وانتخب في سنة ١٩٢٧ عضواً في المجمع العلمي العربي في

(١) عرب عن آثول فرانس أيضاً رواية « كرانكيل »

دمشق .

واشترك في تأسيس مجلة « الكشف » وعرب لها كتاب
« غاندي » تأليف رومان رولان .

وبقي ناشطاً في التأليف والترجمة والمصاعفة حتى لحق بإحدى
الوظائف الحكومية في الدوائر العقارية . فلم يكن للوظيفة من
أثر حيد في أدبه ، لأنه أوشك أن ينقطع عن الكتابة انقطاعاً
تاماً في فترة طويلة .

لكنه ، في سنة ١٩٣٨ ، رأى أن يجمع نخبة من فصوله ،
فيما سماه « الحقبة السعيدة » من عمره ، ويذكرها في كتابه :
« الباب المرصود » ، فكان ذلك فاتحة عودته الى الحياة الأدبية .

ونشبت الحرب العالمية الثانية سنة ١٩٣٩ ، وبدأ كأن
مكاسب الإنسانية التقدمية منطوح بها النازية والفاشية ،
وستجدد هذه البربرية الحديثة شباب الاستعمار ، بأشد أشكاله
ضراوة ووحشية ، فأنبرى عمر لانتخاذ الموقف الذي يوجب عليه
جوهر وجوده بوصفه ابناً للفكر والحضارة . فالتحاز في المعركة
الى جانب الديمقراطية ، وانضم الى « عصبة مكافحة النازية
والفاشية » في لبنان ، وكان من أركان مجلّتها : « الطريق » ،
كما ترأس « جمعية أصدقاء الاتحاد السوفياتي » ، باعتبار الاتحاد
العدو الأكبر للنازية والفاشية وسنداً متيناً للشعوب
المستعمرة والمظلومة .

وفي سنة ١٩٤٣ ، خاض الانتخابات النيابية مرشحاً مستقلاً
عن بيروت ، فدلّت النتائج على سعة شعبيته .

وما لبث يكتب ويحاضر في الأذاعة والندوات الأدبية
والحفلات السياسية ، ويفضي بمطاء قلمه المبدع كثيراً من
الصحف والمجلات كـ « الطريق » ، و « صوت الشعب »
و « المكشوف » و « الأديب » حتى أصيب بمرض الكبد فتوفي
في ٢٤ نيسان سنة ١٩٤٦ ، خلفاً في حياتنا الأدبية والفكرية
فراغاً موحشاً .

وبقي ضريحه في « الباشورة » ، بيروت ، محجة يحج إليها
أبناء الشعب في مناسبات الذكرى ، كما بقي أدبه وذكره منارة
مشعة هادية لعشاق الأدب الرفيع في الشرق العربي كله وللمؤمنين
بالديموقراطية والعدالة الاجتماعية والإنسان والحرية .

أما آثاره في السنوات الخمس الأخيرة من حياته فهي على
الترتيب :

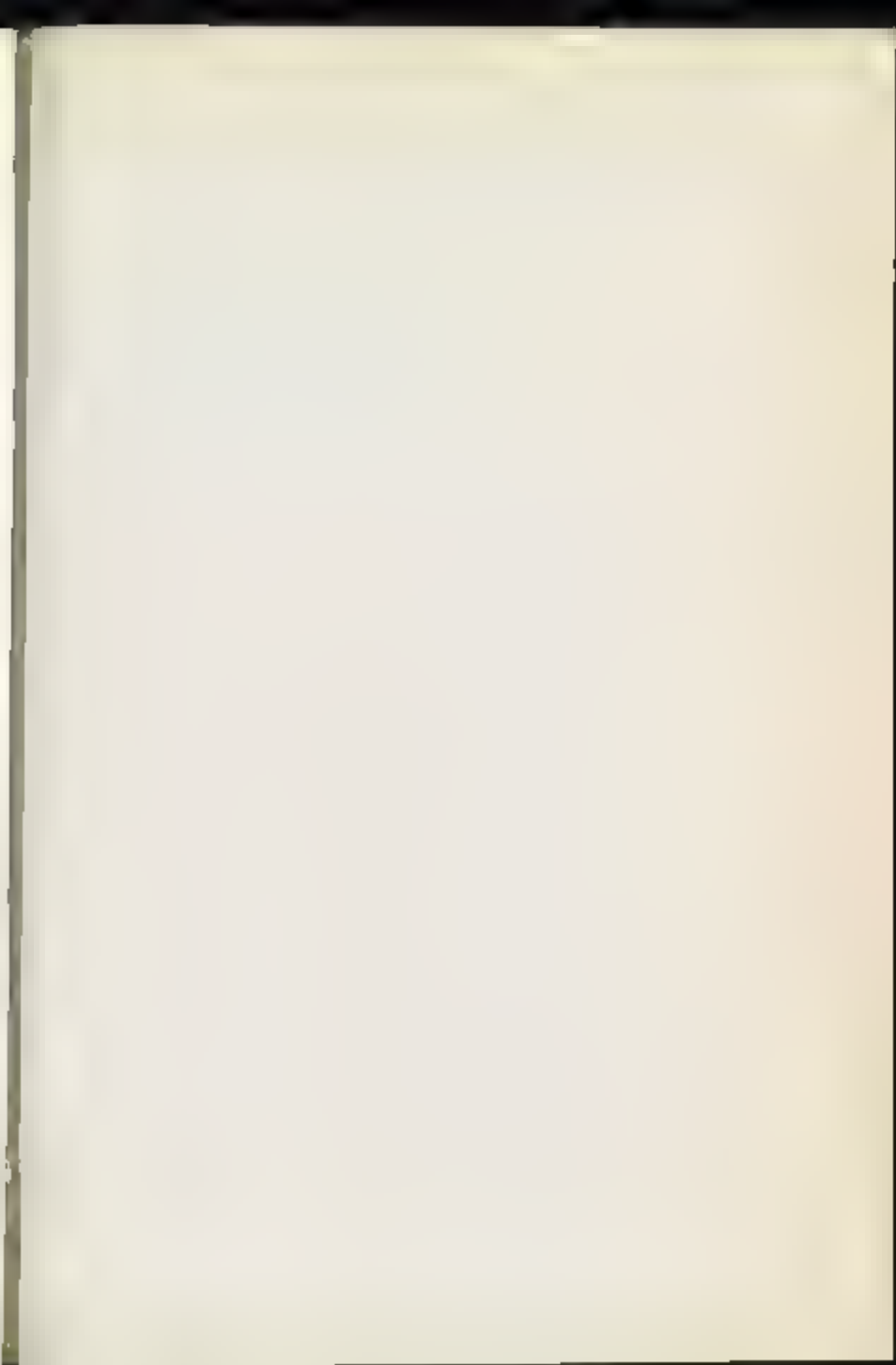
- (١) الفصول الأربعة ، سنة ١٩٤١
- (٢) لا هوادة سنة ١٩٤٢
- (٣) أديب في السوق سنة ١٩٤٤
- (٤) الاتحاد السوفياني حجر الراية سنة ١٩٤٤
- (٥) الحقيقة اللبنانية سنة ١٩٤٥

*

ولعلّنا بعض آثار أخرى غير التي أتينّا على ذكرها
في هذه المقدمة المختصرة ، على أنها ستجد موضعها في هذه
المجموعة الكاملة إن شاء الله .

رئيس خوري

هذه فصول تلمّ بموضوع الشعر من بعض
نواحيه ، اختارها المؤلف مما نشره في
الحقبة السعيدة من عمره ، ما خلا «المأدبة»
فهي حديثة العهد جداً ، ويصح ان تكون
خاتمة الكتاب اذا جاز ان نعد مقدمته
«الشاعر وابناؤه» التي يستقي فيها لعهد
الصبى . قد لا يكون لها قيمة في ذاتها ،
ولكن لها على الاقل قيمة تاريخية ، في
حياة صاحبها وحده . اما قيمتها في «حياة
الادب» ، فللقاري الكريم ان يردّها الى
«ما قبل التاريخ» .



عمر قاسم

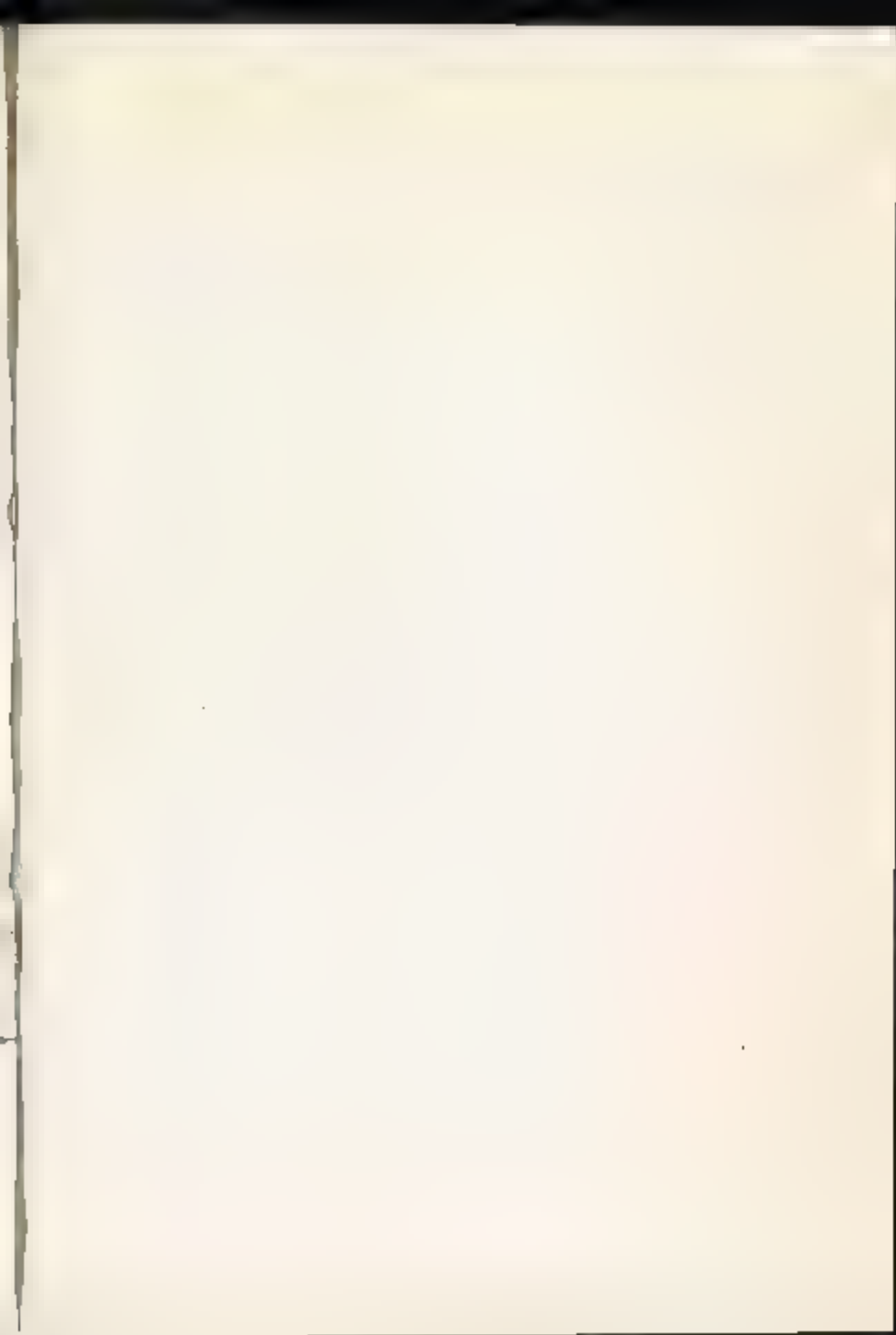


الباب
المرجع

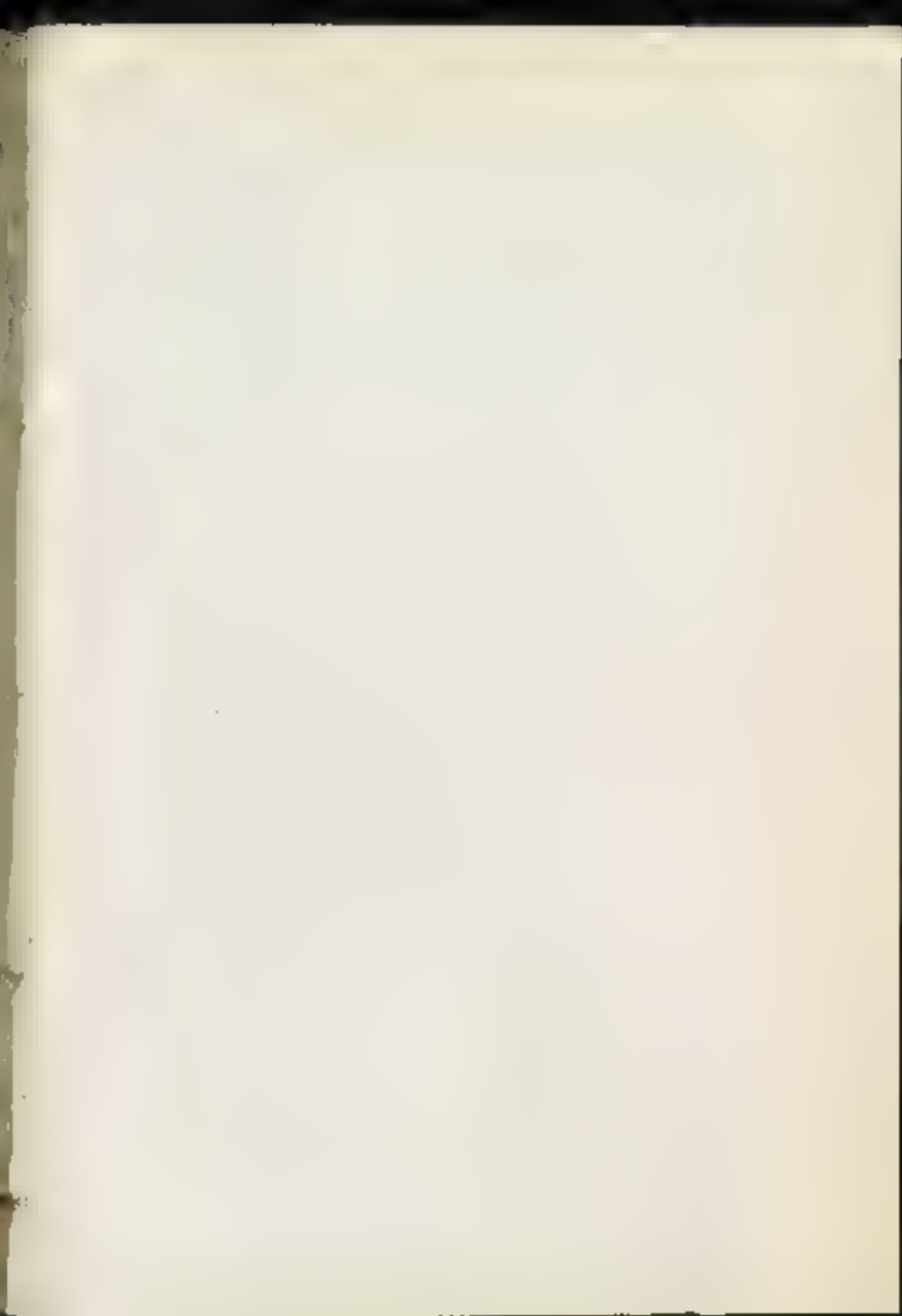
دار الثقافة

بيروت - لبنان





الباب المرسوم



Fā Khūrī 'ulmar

عمر فاضل

al-Bāb al-marṣūd
...

الكتاب المرموع

NEW YORK UNIVERSITY LIBRARIES
NEAR EAST LIBRARY

نشر وتوزيع
دار الثقافة
بيروت - لبنان

FJ

7824

A4

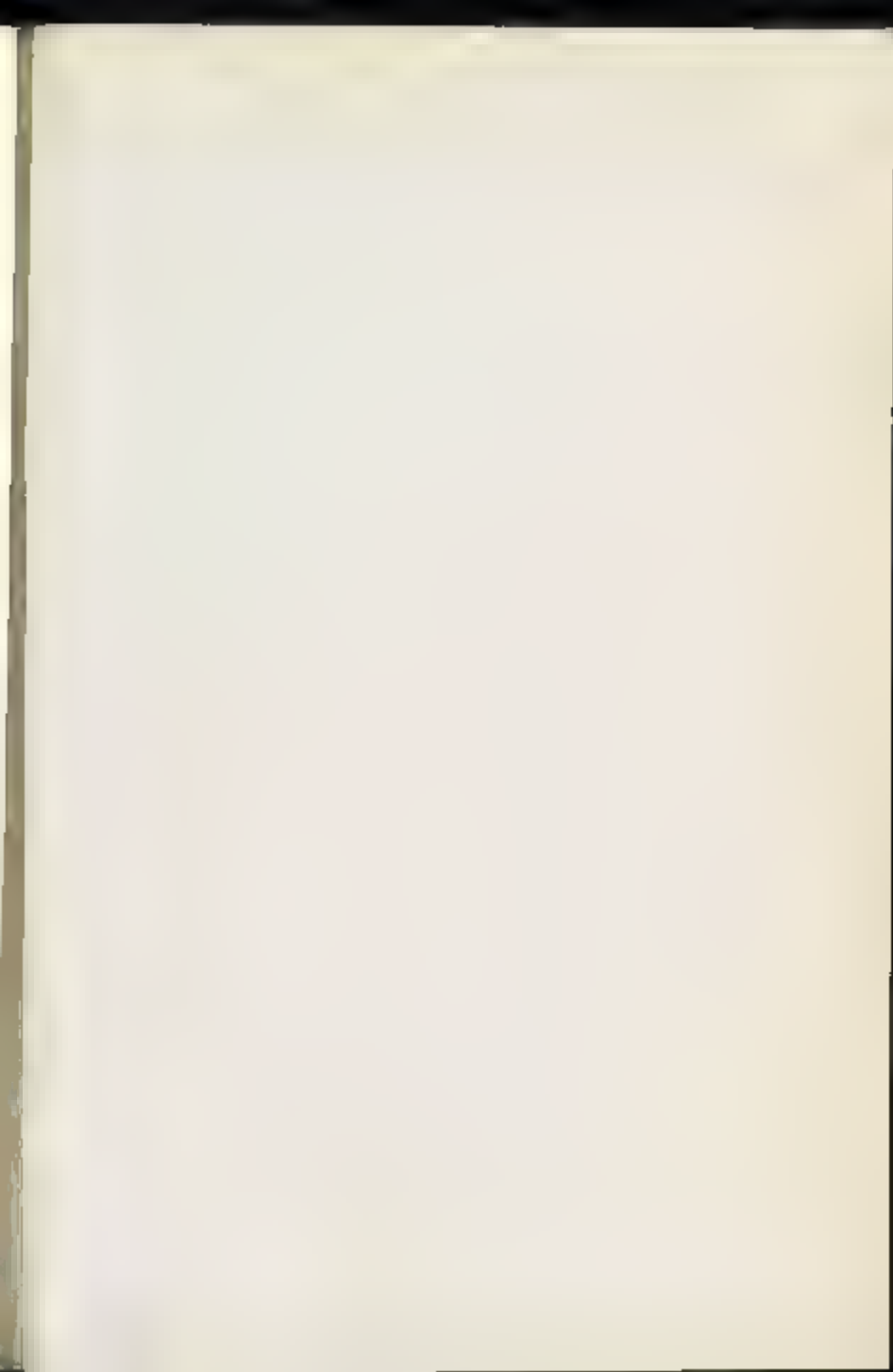
B3

1937

C.1

جميع الحقوق محفوظة

الشاعر وابنائه



روي أن أبا تمام انشد أحدهم قصيدة له أحسن في جميعها إلا
في بيت واحد ليس كسائرهما . فقال له : يا أبا تمام ! لو أسقطت
هذا البيت ما كان في قصيدتك عيب .

فأجاب الشاعر قائلا : أنا والله أعلم منه مثلما تعلم . ولكن
تمثل شعر الرجل عنده مثل أولاده ، فيهم القبيح والجميل ،
والرشيد والساقط وكلهم حلوا في نفسه . فهو أن أحب الفاضل لم
يغض الناقص ، وإن هوى بقاء المتقدم لم هو موت المتأخر ...

وبشبه هذه الحكاية ما يروي عن أحد مكاتب الفرنسيين ،
وذلك أنه بعد أن نضج واكتمل فنه ، استمر على إجلال تأليفه
الأولى والمبالغة في الإعجاب بها . ويقول الناقد الذي يروي هذه
النادرة إن ذلك لم يكن من « رنة بازان » بحامل من الغرور الأدبي
بل بباعث من الحنان الأبوي . « ولقد أخطأت ذات يوم وسألته :
أي قصصك أفضل عندك ؟ فاخذته الحدة وأجاب بقوة قائلا :
« - الحقيقة هي أن كل مكثي - كلها - وضعت واشترك

في وضعها قلبي . . . خرجت من صميم نفسي فلا أستطيع أن
أفضل بعضها على بعض .

*

هذا المساء ، في إحدى ساعات الملل التي يتسائل المرء فيها
وقد هادنته الحياة : « ترى ، ماذا يراد بنا ؟ في هذه الدنيا ، وهل
لوجودنا غاية ؟ » يتسائل متبرماً بألمه ويومه وغده ، دون أن
يرقق إلى جواب أو شبه جواب على سؤاله ، بل السؤال الذي
طرحته سألته على الوجود وعلى الحياة . . .

جلست إلى متضدتي مضرباً عن الأعمال والجهود الباطلة ،
ويديا تعبثان جادتين في البحث عن لا شيء . وهكذا عثرت
ينائي ، ويسراي لا تعلم ، بدفتر أسود صغير هو بعض ما بقي لي
من عهد الصبي . اخذت في تقليب أوراقه الرثة الصفراء ،
فانبعثت منها رائحة القدم والبلى كأنني دخلت غرفة أحكم قفل
أبرابها ونوافذها وفتحت زماماً مدبداً .

ودفترتي هذا ، على ضالة حبيبه ، كالقدح المألن لا تزيد على
ما فيه قطرة الا طمغ : ليس بين سطوره وهوامشه موضع لكلمة .
فيه آراء وأبيات شعر وخلاصات مكتب ، بالعربية والفرنسية
والانكليزية ، وبعض مفردات الاسبرانتو . . . وفيه أيضاً خواطر
لي وشروح وتعليقات ، ولا فخر ! فهي التي عقدت الآث لساني

وكتبت في ، إذ سمعت بأن أنادي ، على جاري العادة في مثل هذه
الاسوال :

— سقياً لك يا عهد العبي ورعياً !

من خواطري في ذلك العمر السعيد بجهل وغروره ، وإيمانه
وحماسته ، ما أنقله الى القراء بين أهلة كأني أنسبه لآخر . . .
قال رحمه الله :

«عاطفة الشاعر في بدء حياته الشعرية :

«وردت زمناً في نظم الشعر خشية ان لا يتسع له ما في من
خيال . ثم اقدمت . الاسباب : ما رأيته عند الغربيين وضيق
نطاق ما طالمت في كتب العرب ، وعلى الأخص المه نصيرين منهم .
لقد رأيت هؤلاء غير جديرين بأن أقول فيهم الكلمة التي قالها
أحد كتاب الفرنجة في بعض العصور الزاهرة : إذا لم أكن عظيماً
فاني على الأقل معاصر للعظماء !

وهل هذا غرور ؟ ربما . . .

«بعد أن كتبت أبياتاً معدودة من قصيدي الاولى بقيت
أباماً لا أجرؤ على الدخول منها بزيادة أو تنقيح ، أنظر اليها كما ينظر
المحب الى حبيبته ، مع علمي بأنها غير تامة وان فيها ما يجب بتره
بحق وعدل .

«وما أشبه هذه الماطفة بماطفة الاب والام أمام «طرفتهما»
في اسبوعه الاول ! يعلمان ان شد المصائب على أعصاب الطفل

الرطوبة مما يقوئها، ولكنها يخافان أن يؤلها ويسمعا بكاءه . . .
بيد انها بالرغم من ذلك سيدمان بعد الاحجام . . .

دواني لمقدم أيضاً على شد أعصاب طفلي (القصيد) ا

في ٦ تشرين الثاني سنة ١٩١٣هـ .

*

هذا ما جاء في ذلك الدفتر الصغير ذي الاوراق الصفراء
كأوراق الخريف. وهو لفق "كان" فيما مر من أعوام ، لا يعرف
السامة المتسائلة : « ماذا يراد بنا في هذه الدنيا ؟ » يؤمن بأشياء
كثيرة ، منها انه سوف « يحدد » الشعر العربي ، لم يكده ينظم شعراً .
لقد جنت عليه اليوم ، فبعثته من مرقد ، المقابلة بين ابي تمام
الشاعر العربي ورنه يازان الكاتب الفرنسي اللذين اتفقا على بعد
الشفة بين عصرهما ، وأجما على القول بأن القصائد عند ناظمها ،
والكتب عند مؤلفها ، هي كالابناء عند الوالد الحنون . . . ليس
الأمر بلدي بال ، وهو لن « يكسر » بيتي الشاعر الانكليزي كبلنغ
المقاتل :

« الشرق شرق والغرب غرب ، ولن يلتقي الاثنان ! »

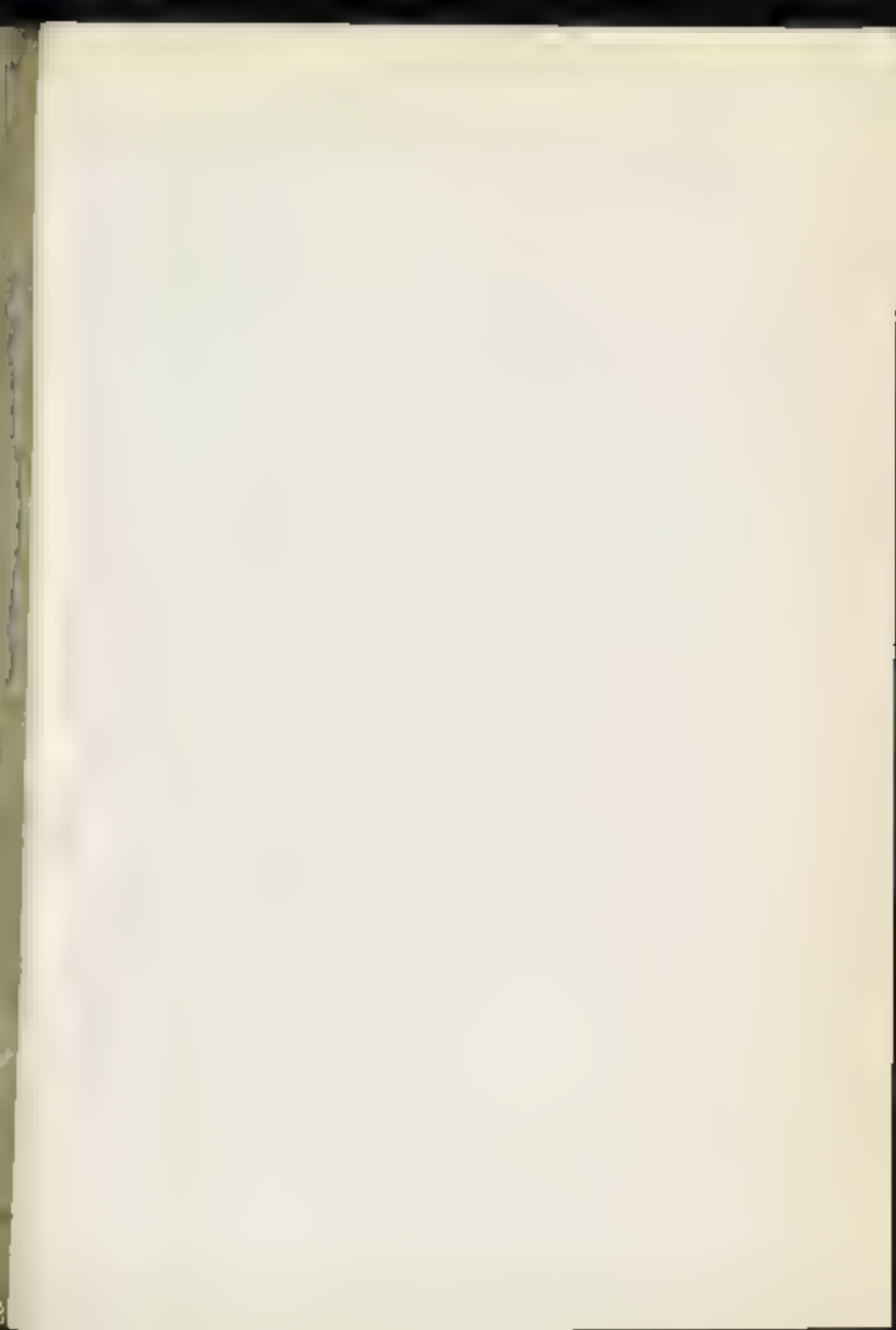
لكن تبشنا قبر ذلك الفقي المسكين الذي كتب فيما بعد - ربما
بعد أيام معدودة - على هامش خاطرته هذه العبارة ، قال رحمه

الله: ومن هنا قول العرب عن الشاعر المتكرر «هو حسن التوليد»
ومنه أيضاً تسميتهم المعاني «بنات الفكر» ثم ختم بسذاجة تفوق
حد الوصف قائلاً: ما أعظم فرحي بوقوعي على هذه المقارنة
الجميلة! »

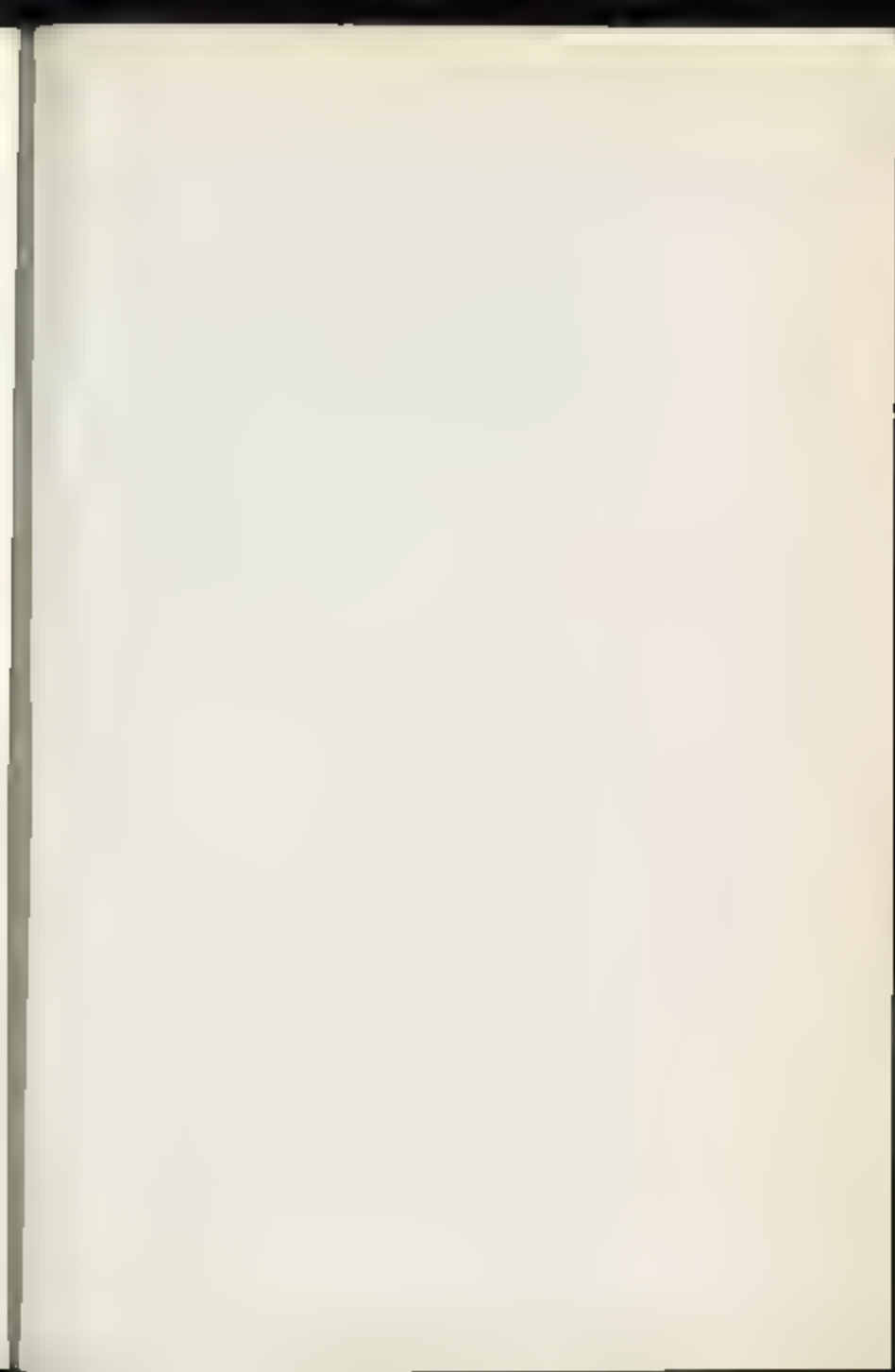
*

مقبلاً لك يا عهد الصبي ورعياً لقد كنت تسكر بزيبية...

١٩٢٦



الباب المرصود



شهدت ليلة أمس في أحد ميثاوات البلد فلما يقص علينا القصة
الأبدية : نفسان فاضلتان - رجل وامرأة ، تجزيان في الحثام ، بعد
عذاب شديد ونصب طويل ، بالهناء المقيم والراحة الشاملة . وكان
القلم مؤثراً - لو لم أجده قله في نفسي لوجدت برهات ذلك في
الدموع التي ذرقها ، ذات اليمين وذات الشمال ، فحق من بني قومنا
وعجوز من نساء الافرنج . لست أزعم اني كنت كالجزيرة بين
الفرات ودجلة حتى خشيت الطوفان . ولكنني أشهد ان صاحبي
الفق وجارتي المعجوز بكيا . ولقد خيل إلي ان الاقدار ساقنتني
نحو محرومين من نعم الحياة ، فهممت ان آخذ بيده اليسرى
ويدها اليمنى فاعقد بينهما ، لولا ان منعتني كراهتي الدخول فيما لا
يعنيني وحسنا فعات !

أما الفق فما أوشكت القصة السينائية ان تنتهي ويرجع النور
الى القاعة حتى رأيت يبادر الى مسح عينيه كالمنمحي من ضعف
نفسه ، الحائف من سخر الناس الذين سيعلمون أنه « صدق » ووقع

في حباتل . . . الفن . وأما المعجوز فأني رأيت في أعلى خنديها
زهرتين ذابلتين تلح فيهما قطرتان من ذلك الندى الحي ، وكانت
أكثر تمهلا في كشفكفة عبرتها ، كأنما تود لو يستمر هذا السحر قليلا ،
أو ترجو ان لا تسقط من ذلك الحلم .



هكذا للفن ، سواء الموسيقى والشعر وغيرهما ، يخرج المرء عن
طوره الى طور ثانٍ وينقله من عالمه الى عالم آخر . ولعل في
البشر الى هذا الانتقال حاجة طبيعية تلح عليهم حيناً بعد حين ،
فهم يكرهونها ، يختلف الوسائل التي استنبطت من أقدم الأزمنة .
وهل الأديان التي تحمل الأنفس من هذه الدنيا المنظورة الى تلك
الآخرة المنفية بما فيها من جنة ومار ، الا المظهر الأسمى لتوق
النفوس وشوقها وحنينها الى صور غير الموثيات ، وحياة كما يقول
انا قول فرانس ، تُصلح فيها مساوي هذه الحياة ويُكفر عن
ذنوبها ؟ هل الأديان الا وسيلة الى كفاية تلك الحاجة الطبيعية
الدائمة في هذه الانفس الساخطة المتبرمة ؟ ولا عجب . فالهداية
هي ان البشر ينشدون السعادة المظلمة ، وانهم لا يوفقون اليها في
الواقع الذي يعرفونه ويمسكون نقصه وعدم موافاقته ، وقد حسبوا
انهم يحفظون بها - اين ؟ في غيبوبة عن هذا الواقع ونسيان له
وخرج منه .

ان البشر في حياتهم هذه لكثر فاق سفر استيقظوا بفتة على

غير موعده ، في حجرة حبيسة الهواء خابية النور ، تتجارب في
 نواحيها الاصداء المنكرة وتطير الاشباح الخوفة : هذا يبيع
 وذاك يشتري ، هذا يتزوج وذاك يطلق ، هذا يلعن وذاك يستغفر ،
 هذا يولول وذاك يغني . . . فهب كل واحد من هؤلاء المغضوب
 عليهم ، ضيق الصدر طائر البصر ، الى مكوة من كوى الحجرة
 يفتحها ، ليطل منها على عالم مسحور تسبح فيه الملائكة وتلمع
 الدراري وقرقص الجنيات الحسان - في مروج من سندس ، تحت
 سماء من لازورد ، حيث الهناء المقيم والراحة الشاملة .

ولذلك رأينا بعضهم يدمن الخمر مؤمناً بباخوس او يشم
 الكوكايين واحداً فيه ربح الجنة ، ورأينا البعض الآخر يقبل على
 الحشيش ، او الأفيون الذي زعم الكاتب الانكليزي «دو كوينسي»
 في دعائه المشهور الى هذا الرب المعبود ، انه قادر على أن يشيد
 بأبرع صنعة من فيدياس وابلغ فنا من براكسيل ، مدناً ومعابد
 تفوق بابل وارم ذات المهاد ، عظمة وثناء : وانت وحدك تهب
 الإنسان هذه الكنوز ، وبيدك وحدك مفاتيح الجنان ، ايها الأفيون
 العادل القدير ذو السلطان ، وكل هؤلاء يسلكون في مشارق
 الأرض ومفارها سبلا مختلفة الى غاية واحدة : السكر ، او النسيوة
 التي تنسى فيها موم الحياة اليومية . وليست تلك السموم القاتلة
 الا مفازات يقطعونها الى عالم الشيب والغفلة والطمأنينة ، او كوى
 يفتحونها في الحجرة الحبيسة الهواء ، الخابية النور ، التي تتناكر
 فيها الاصوات وتتزاحم الاخيرة .

والحب متى يبلغ أشده ويصل الى ذروته - ألم يقل العارفون
انه يكون حينئذ كقشوة السكرى يغيب بها المرء عن نفسه ،
ويغفل عما حوله ، وينسى حاضره وآقبه ، حتى ليحسب انه يضم
الى صدره حبيبته ، حبيبته بعينه ، وهو لا يضم ، لو يعلم ، الا صورة
يتخيلها او مثلاً يتعمله ، في برزخ بين الموت والحياة ، بل حيث
لا موت ولا حياة ! هو الفقير فإذا به الغني ، وهو المنكود فإذا
به المجدود ، وهو في الارض فإذا به في السماء .



سمت نفس «بودلير» الشاعر الفرنسي فطامق ينقلها من قطر
الى قطر ، وهو يئسها بالنعم والطمانينة وهي لا تزداد الا قلقاً
وملالة ولحفة الى الرحيل . وكان لا يفتأ يأسها في احدى قصائده
المنشورة : «الى أين قريدين يا نفسي ؟» فلما فرغت حيلته ونفذ
صبرها أجابت قائلة : «حيثما كان» ولكن في خارج هذه الدنيا ،
ولبودلير قصيدة هي آية في الابداع عنوانها «الرحيل» قص فيها
قصة تلك النفس الظائعة ابدأ ، ووصف جهوده للفرار من ذاته .
لقد عاذ الشاعر بالفن والجمال والطيب والموسيقى ، لأنها على
حد قوله «لقلوب ابناء آدم أقيون إلهي» ، ولكن لم يجده عياده
بها جميعاً . فليجأ الى الحب والدين ثم جرب كل الوسائل التي اهتدى
اليها البشر لتتوبع اللذة وارواء النفس ، فإذا بالسعادة في مراحل
هذه الهجرة الكبرى رغم بهجة الطريق ، سراب خادع لا يتلاشى
في أفق الا ليظهر في أفق أبعد فأبعد وأخيراً عرف «الافيون

العظيم - وله كتاب في وصف الجنات، لا جنات عدن، بل
 و جنات المصطنعة، فقال لنفسه : إذا كان النعم في الموت، في
 الموت وحده، فليكن المرحلة الأخيرة يا نفسي ! وهنا يلتقي بوداير
 وأفيونيه بالبوذيين ودورقانا، هم، لتأم كروية الارض... وان
 قواغل البشرية المتنقلة من ازل الازل الى ابد الابد، في سبلها المختلفة،
 لتقف جميعاً عند غاية واحدة مزدحمة على عتبة الباب المرصود،
 حاسبة ان السمادة الكبرى والطمانينة العظمى خلف الباب،
 متسائلة في سيرة ولهفة :

- ولكن من، ترى، يفك الرصد ؟

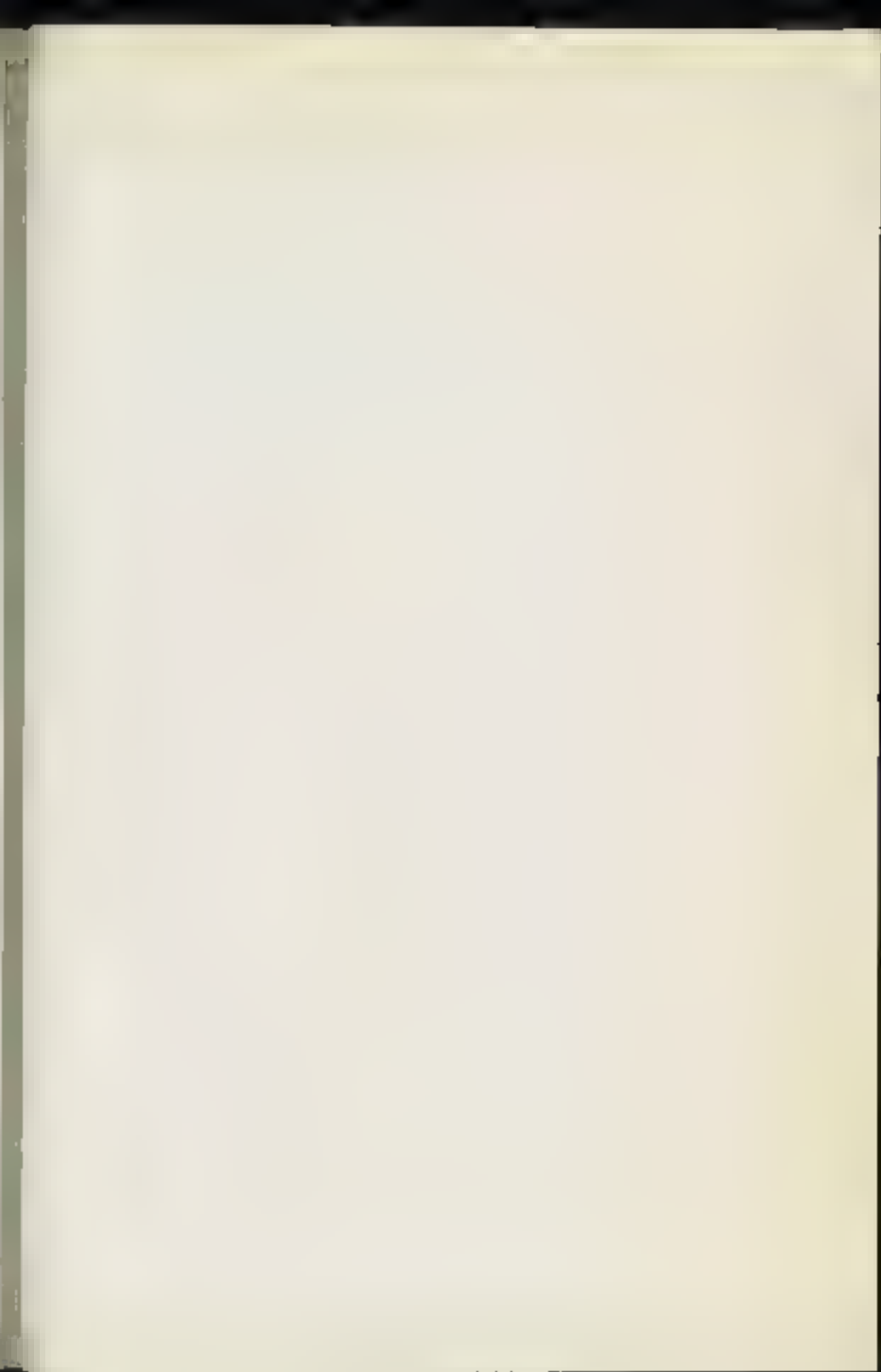
*

ما اكثر ما رأيتني كالشيخ يعود اليه مرح الشباب بفتنة أممي
 نفسي بالنعم لأنني، لك الى صدري كتاباً، امرع في خطاي
 كأنني وحببيتي على موعد لقاء

١٩٢٦



كنوز الفقراء



بقرة، وليست كالبقر ضخامة جسم، بل هي أقرب الى العجل الصغير. تلمع عيناها في الليل اليهم كأنها جمرتان او نجمتان. مسرجة بالذهب، نعالها وخلاخلها من ذهب. وعلى ظهرها عدلان ملثا بالدر والياقوت والحجارة الكريمة. تجيئك في ساعة متأخرة من الليل فتناديك قائلة:

— تعال يا فلان وخذ نصيبك !

فلا تخف ولا توقظ أحداً من أهلِكَ النيام. تقدم نحوها رابط الجأش وانزع نعالها وخلاخلها وسرجها، وافرغ العدلين من كنوزهما، ثم املاهما بما تيسر، والافضل ان تجعل في احدهما خبزاً وفي الآخر ملحاً؛ علامة المودة والشكران. فهي تضي في سبيلها تاركة في دارك الذهب والدر والياقوت والحجارة الكريمة. طوبى لك فأنت الغني السعيد !

... وفي النصف الاخير من القرن الثاني عشر للهجرة زارت البقرة «حاملة النصيب» جدة والذي السيدة صفية وكانت رحها

الله، «سبعينية». فسمعت طقطقة النعال ورنين الخلاخل على درجات السلم، فنظرت من ثقب الباب الموحد عليها في حجرتها، فرأت البقرة المذهبة تحظر في باحة الدار، وعيناها تضيئان كأنها جمرتان أو نجمتان، وهي تنادي بصوت أشبه بالحوار:

— تعالي يا صفيه وخذي نصيبك !

أما المرحومة فجمدت في مكانها معقودة اللسان. وأما البقرة فقد نادتها ثلاثاً ثم انصرفت كالستكبرة، انفة من هذا الجبن الشديد الذي ما عليه مزيد ! ولكنها انتظمت منا بأن تركت على إحدى درجات السلم زملاً من نعالها الذهب، دليلاً على الثروة التي لم تمتد يد لأخذها، وباعثاً على الحسرة الدائمة. ويروى أن جدتنا قالت إذ انطلق لسانها هذه الكلمة المأثورة: «والشعادة، ولا السعادة !» وهكذا كنا ولم نزل فقراء، عزاًؤنا الوحيد، بل عزائي أنا وحدي هو التي كدت في النصف الأخير من القرن الثاني عشر للهجرة أكون، في ظهر الغيب، غنياً، فإذا لم أكنه فذلك لأن جديتي السيدة صفية، عليها رحمة الله، ما أرادت . . .

بهذا وأمثاله كنا نتسامر في إحدى ليالي الشتاء ونحن، كباراً وصغاراً، جلوس حول الكانون صديقي المؤنس المحيي الأمين، وبغثة شهدت في هذه الغرفة الصغيرة، كيف تمخلق دنيا غير دنيانا يقطن بها أقوام غير أقوامنا، دنيا عجيبة ملأى بالأرواح الخيرة والشريرة، قفيض منها على دنيانا الأعاجيب، وفيها يحمد العامة

تأويل كل الأمرار. وأحسنت كان هذا الجو الذي كنت أحسبه
مهجوراً هو على الضد من ذلك مأهول لا تكاد تجد فيه ، من شدة
الزحام ، شبراً واحداً لم يحل جني أو عفريت .

وليس أعجب ولا أبلغ دلالة من الصلة التي جعلها العامة بين
عالمنا وذلك العالم . أقص عليك قصة «الداية» التي دُعيت ليلاً إلى
امرأة في الوضع ، فاعترضت سبيلها سيده محجبة سألها أن تشعل
لها شمعتها المطفأة ، فلما تناولت الشمعة من يدها اختفت السيدة بين
الأرض والسماء ، ونظرت الداية فإذا الشمعة «أصبغ غضوبة بالحناء» ؟

أم أقص عليك قصة الرجل الصالح الذي التقى ذات ليلة
بالجنية المروسة ، الهللة بالذهب من قبة رأسها إلى قدميها ، فقالت
له : عرني من ثيابي وهي لك ! فلما ذكر انه ينبغي أن يخلع عنها
كل ثيابها وينظر إليها وهي عارية ، حوّل بصره لأنه لم يكن امرأ
سوء ، وقال لها : استتري يا اختي . . . استتري ! ثم انصرف ، لم
يفهم ولم يأنم ؟

أم ماذا أقص عليك ؟ لقد انتقلنا من أسطورة عجيبة إلى
الأسطورة أعجب ، ومن قصص جنية إلى قصص أجمل ،
حق خيل إلي أن ليلتنا هذه ليلة «شاردة» من طرفة الشرق
الكبرى ، أعني كتاب ألف ليلة وليلة . . . وأخذت أفكر فيما
فكرت فيه من قبل إذ كتبت «الباب المرصود» .

ليس خلق عالم على هامش عالمنا هذا ، أو تصور وجود غير

هذا الوجود المادي ، وفقاً على وحي الأنبياء وخيال الشعراء .
 فإن للعامة في هذا الخلق والابداع اليد الطولى ، بل لعل الأنبياء
 والشعراء يستقون من هذه النايبع التي لا تفتأ تفيض في كل عصر
 ومصر ، ولا يفيض ماؤها أبداً : الآداب العامة . فإذا كانت في
 الأمر بعض الشك فإن الشعوب ، بالأقل ، تلتقي مع أنبيائها
 وشعرائها في صعيد واحد لكفابة الحاجة الإنسانية العامة الدائمة
 الى الخوارق والأعاجيب ، أي الى كل ما هو « في خارج » هذا العالم
 ونواميسه المعروفة وحقايقه المألوفة . وان في الآداب العامة او
 « الفلكور » كما يسميها الافرنج لطرائف شائقة ممتعة غزيرة المعاني ،
 سواء الأناصيص والأمثال أم الأساطير والعقائد ، توفر على العناية
 بها ، جمعاً ورئياً وثأريلاً ، كثير من اختصاصي الغرب ، اعتقاد
 انها فنون غير الفنانين وآداب غير المتأديبين ودواوين غير الشعراء ،
 لا يتجلى فيها الروح القومي فحسب ، بل تفرج من جهة ثانية عن
 النفس الانسانية على اطلاقها ، فهي كالبقرة المسرحية بالذهب
 تحمل كنوز الفقراء .

... وأسرت إلي اكبرهن سنأ قولها :

— هل تعلم لماذا اورثت قلانة بنيتها (وذكرت اسرة معروفة
 في البلد) سوفاً برمتها هي السوفى الفلانية ؟ ذلك لأن البقرة زارتها
 فأخذت منها نصيبها . . . والا فمن أين لهم هذه الثروة الطائلة ؟

وقالت أصغرهن سنأ وفي عينيهما الخوف والرجاء :

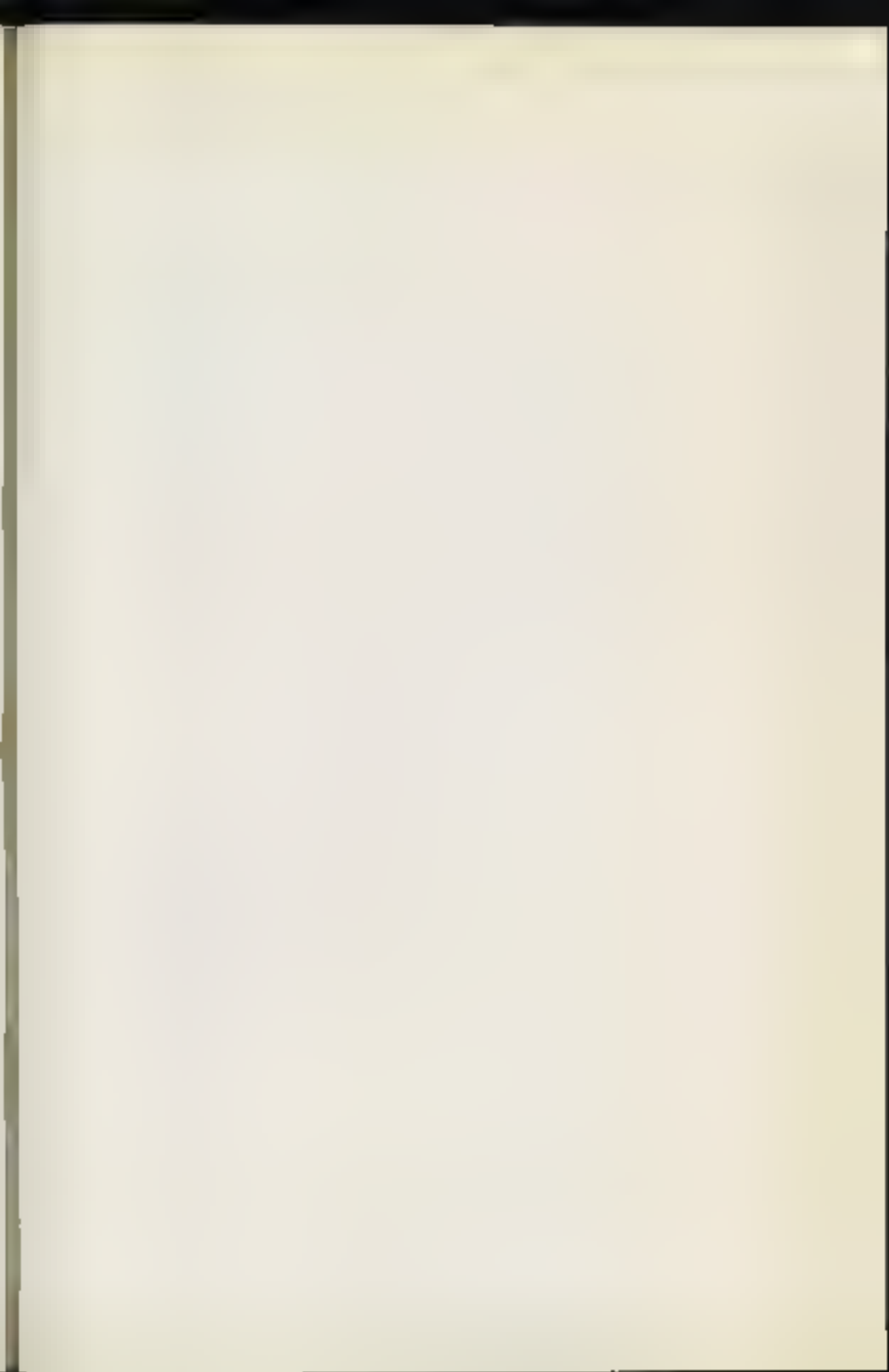
— إذا جاءني البقرة، هذه الليلة، وعادتي: يا ملوى، قومي
وخذي نصيبك! فساأقول لها من تحت اللحاف: يا بقرة أنا أخاف
لأنني صغيرة، فضعي نصيبي على عتبة الباب، أرجوك!

ولكن أم سلوى ضمت صغيرتها وعوفتها قاذلة:

— بسم الله الرحمن الرحيم!

١٩٢٦

حنين شاعر الشعب



مقدمة مرسله

صديقي حنين

لا أحبيك وأنا كل يوم أحبيك . . . وبعد لما إخالك نسيت
كلمة من «رثاء» قرأناها منذ أيام في كتاب مختاراته : «الادب
الحق في زمن ماء» هو الذي بصور ذلك الزمن ويعرب عنه . كلمة
جسامعة من فصل قيسم في حقيقة الادب وعلاقته بالعصر - في
الاصول التي منها يستمد ميزات الجمال والتأثير والبقاء .

وهذه قصائدك ببيانها ومعانيها وأغراضها، لن تضيرها تلك
اللهجة الوسط بين الفصحى والعامية، بل إنما في هذا الثوب المتنوع
الألوان البهيج الزري ، لأحسن استيفاء لشروط البلاغة في المعنى
والفصاحة في التركيب ، من بدائع كثيرين من ادباء العصر الذين

يحيون في منظرهم ومشورهم على هامش الحياة ، ففصارهم إذن
ان ينطرح «أديهم» جثة على هامش الادب الحق الذي لا يصدر ،
سواء كان فصيحاً أم عامياً ، الا عن مورد واحد .

أما الجنة فيبالقوت في تنميقها وتزييقها وتأنيقها ، لكنه
«تواليت» الميت الذي لن يندع طريقاً . لن يندع في صفوفنا هذه
الفئة الفتية التي تطمع فيما هو خير من نسخ الاقدمين وأعرس من
تقليدهم ، وتطمح الى ما وراء صب الالفاظ في القوالب الجاهزة .



هذه الجنة الخراب - وطننا ، بما يسمع في جوه وفي بجره ،
على اطواره وأنجاده ، بيواديه وحواضره ، وحول غدرائه الراكدة
وسيله الراكضة ، من همس وقصف ، وتهليل وعويل ، وحفيف
وعزيف ، وصباحات وأصداء .

وهذه العروس النائمة - حياتنا ، بما فيها من مسرات تعقب
حللوها مرارة الاحزان ، ومن آمال خائبة لا ترضى استسلاماً
للقنوط ، ومن الخمازي المتلبسة بالشرف ، والشرف الأشبه بالعار ،
ومن سيوف مفلولة بأيدي مفلولة .

وهذه الغاية المهجورة لأنها لا تعرف الدلال - عاميتنا ،
بنكاتها الطريفة وحكمتها الحصيفة ، بحفائقها الجارحة وأساطيرها
الساذجة ، وبمولدها ومحدثها من أراضاع ومفردات دقيقة الدلالة ،
وتراكيب وأساليب عظيمة مأنوسة .

وهذه الشجرة الشرقية الغربية - ثقافتنا بما تحمل من هدى
الى حسن الاختيار ، ومن حث على فضل الانتقاد ، ومن توفيق
الى ثواب الإصلاح ...

*

تلك جميعاً أيها الصديق ، هي الينابيع التي تفجرت باغانيك
الجميلة وضعا ، الرقيقة لحناً ، الرقيقة مقصداً . مستقر الحقيقة
وملعب الخيال ، ملقى الطبع الصادق والصنعة الجيدة . وهل
أدلت على ذلك من اعجاب العامة والخاصة بها على السواء ،
وطريهم لها في كل ظرف وبكل ناد ؟

لو كنت أيها الصديق ، في ديار الغرب لكان الكلام في رسالتى
هذه على نوع من أنواع الادب والموسيقى له شأنه ... ولكن على
هذا النوع فحسب . بيد اننا لحسن حظك وسوء طالعنا في بلاد
أكثر من فيها المتأدبون وأقل ما قيمها الادب الحق . لذلك عددت
نفسى سعيداً بتقديم هذا النموذج العالي لا للأغاني الشعبية ، بل
للأدب على الاطلاق . فقد جئت لتذكرنا بأنه ينبغي ان نكون
الصلة بين الادب والحياة غير منقطعة حيناً من الاحيان . وان
يفتح مسيل بين القصصى الجامدة باهلها والعامية التي تعين على
تزيينها ، اسوة باللغات الحية . ولا احسب هؤلاء الذين يريدون سد
هذا المسيل بأيديهم الا ككأولئك الذين أرادوا حجب الشمس

باصفهم حجبوها عن أعينهم وظلت نضيء . ليحروا أقوى من
الزمان ، وطبيعة العمران .

هذا ، والله يحفظك لأخيك ...

[مقدمة لأغنية باللهجة العامية نظمها عمر

الزعتي بعنوان : صندوق المجاييب .]

١٩٢٤

حنين والشعر القومي

حنين - رجل الوقت، لم يؤث أحد في الأعوام الأخيرة مثل شهرته الواسعة في عالم الادب، وفي غيره أيضاً. ذلك انها لم تقتصر على العامة الذين ينظم بلهجتهم الحية ويحدثهم عن أعلق الاشياء بنفوسهم وامسها بحياتهم، فقد عرفنا الخاصة، بل ربما كان هؤلاء اسبق الى معرفة القيمة الفنية الجليلة في أغانيه الجميلة. كان في إحدى قرى الجبل، صيف عام ١٩٢٥، ينشد نقرأ من اخوانه. فسمعه «الريحاني» لأول مرة، فشى اليه قائلاً: «يا رجل! ألسن الزعني؟» قال: «بلى.» فقال له: «ما أنت بمنزلة: انت عربى.»

*

يحتاج كل عصر الى من يشهد له او عليه، وأغاني حنين هي الشهادات الصادقة على زمن لا يؤدي اديه الزور هذه الخدمة الواجبة. هي شهادات على العصر وعلى اهله تكشف عن عوراتها ومساوئها حتى يمكن القول ان حنيناً هو دائماً من «شهود الاتهام». ولكن الاصح أن يقال انه أعظم الهجائين بين شعرائنا، لأنه استحدث نوعاً من الشعر الهجائي هو الهجاء الاجتماعي.

وإذا كنت حزين مريباً فليس كسائر المربين ، أو هو مرب
يتوسل الى مطالبه بوسيلة عجيبة : السخرية ، ونعم الوسيلة هي ا
في مقدورك ان تقول ما تشاء لأي كان ، فتذمه اقلع دم تشته
اقبح شتم ، ولكن على شريطة ان تضحكه ، فانك اذا اضحكته
جردته من سلاحه . ألم تقالب ذات يوم من هو اضعف منك -
ولذلك الصغير مثلاً - فقلبك لأنك تضحك وهو يحد ؟ كذلك
الامر في المعنويات . فإذا لا عجب لحزن يستغل فينا هذا الضعف
الإنساني ، فيقلبنا ونحن نضحك وهو يحد . بل لو لم يكن الا
الضحك لكفاء فضلاً : إنا لفي عصر نظم الذين ينعمون علينا
بالضحك اذا جعلناهم في مرتبة دون مرتبة باستور وامثاله من
الحسين .



لحزن كرامات في حياته وما هو من الاولياء ، فان كرامات
هؤلاء لا تظهر ، في الاغلب إلا بعد وفاتهم . لقد سمعت احدهم
- لا احد الاولياء بل واحدهم - يقول لصاحبه امس وهما
يتحدثان عن الفرنك وصعوده بعد ذلك الهبوط السريع :

- يا ما ارتفعت وزارات وسقطت وزارات ، وعملت
مناورات ونظمت ميزانيات ، فذهب كل ذلك باطلاً . ولكن
ما كاد حنين يصرخ في اغنيته الجديدة من قلب مجروح ، قائلاً :
«حاسب يا فرنك اء حتى وقف بمنزل كن فيكون .

(يسمع الليل في الصباح منه بالليل ! فيصفي مستهلاً في فرارد)
وقد «سمع» القرنك منه، على ما يظهر .

هذه كرامة . ولكن الاعجاز هو ، لا مراء ، في صنعة حنين .
لست اعني صنعة الموسيقى ، فاني في الموسيقى من الذين يعلمون
انهم لا يعلمون ، بل صنعة الشعرية . الى القاري . ترجمة قطعة
للكاتب الفرنسي «بيار لويس» من ديوانه المشهور «اغاني بيليتيس» :

«لما رجع إليّ سترت وجهي بكلماتي . فقال لي : ولا تخافي
ولا تحزني ، فمن رأى قبلتنا؟» قلت له : من رأانا ؟ الليل والقمر ،
والنجوم والسحر . لقد نظر القمر الى خياله في البحيرة ، فحكى
للماء الذي تقي عليه اغصان الجوز ، وماء البحيرة حكى للجذاب ،
والجذاب حكى للركب ، والركب حكى للصياد . واحسرتاه ،
واحسرتاه ! ليت الاسر انتهى عند هذا الحد . ولكن الصياد
حكى لامرأة ! حكى الصياد لامرأة فاذن سيعلم بذلك أبي وأمي
واخواتي وكل البلد .

من هذه الاغنية اقتبس حنين أغنيته «كلمة حكاهما القمر...»
المنشورة في هذا الجزء . وما إدخال القاري . الا قائلًا «مي انت
الاقتباس بفضل الاصل من كل الوجوه . ولكن أحب ان ادس في
المقابلة عنصراً آخر قد يكون في ذكره بعض الفائدة ، وهو هذه
الاغنية الساذجة التي تضحك بها على ذقوتنا ، إذ نحن في مهد
الطفولة الحاملة ، امهاتنا اللواتي يردن ايامنا انها قصة عجيبة

ملأى بالحوادث والوقائع . اقرأ أيتها القاريء ، باللهجة العامية
- وكأنك تقرأ شعراً موزوناً - هذه الآية من ديوان الطفولة :

«حدوتة ما حدوتة ! طلع الشيخ عالتوقه . والتوته يدها
فاسه . والفاسه عند الحداد . والحداد بدو بيضه . والبيضه
بدو الدساجة . والدساجة يدها قمحة . والقمحة بالعلية . والعلية
مسكرة . والمفتاح مع ابو صلاح : راح ليحبيب حملين تفاح . تقى
الملبحة المليحة ، عطاني ياها . والمنخه المتخه ، ضربها بركبشو ،
طلعت من حبيتك للحيتوا ، عفواً أيتها القاريء ...

هذه «أحدوتة» قد يكون لها معنى يشيب عتاً . ولا غرو
فإن من الأشياء ما يفهمه الصغار ولا يفهمه الكبار . ومن يعلم
ما الأحلام التي كانت تلك «السخافات» تحمل على قاربها
نفوسنا . ولكن ألم تر كيف انت حنيناً الذي ينظم اليوم
«أحدوتاته» للكبار ، اختار هذا القالب الشعري العامي ليودعه
اقتباسه من قصيدة غربية ؟ وهنا الإعجاز في صنعه التي يسمو
فيها ما شاء ، وحنينها ما وجد الى تهذيبها سبيلاً ، لكنه لا يترك
«الأرض» التي منها نشأتنا واليهما معادنا ، فإذا استمد عنصرأ
غريباً مثله أولاً ، ثم رقه الينا وكأنه بضاعتنا ، وهكذا نحيا
الآداب القومية في الأهم .

العمود الهادي

للكاتب الانكليزي د. كنز، قصة عنوانها: «مارتن تشورلويت» استلها بهجور مرير للرفيلة التي كان يدعوها اذكباء الانكليز «رذيلتنا القومية» اعني: الرياء. وفي تلك القصة وصف رجل اسمه المثر بكسنيف، لا يزال الى يومنا هذا مضرب المثل في الرياء الإنساني عند الانكليز، كما ان «قرقوف» لا يزال منذ مثله «موليار» على المسرح الفرنسي رمز الرياء الديني عند الفرنسيين.

ان بكسنيف هذا «يعطيك من طرف اللسان حلوة» ويخفي تحت جملة المنمة المفعمة صكراً وحناناً، اقصى أنواع الاثرة وأقبح مظاهر البخل. ويقول دكنز ان هذا الرجل من «الحكم الفاضلة» اكثر مما يحتويه كتاب مدرسي في الاخلاق، وان بعضهم يشبهه بالعمود الهادي الذي يرشد ابتداء السبيل الى الجهة التي يجب ان يمشوا فيها، لكنه لا يمشي قط في تلك الجهة، لانه العمود!

ولقد كان في نية دكنز هاديء بدءاً ان يجعل في الصفحة

الاولى من كتابه هذه العبارة الموجزة البسيطة : «المكان : بيتكم .
 الاشخاص : انتم .» . لكنه عدل اخيراً ، ولعله أصاب فيها فعل .
 فان الانكليز قلما يرضون عن الذين يصارحونهم بالحقائق الموجعة
 المزرية ، أو يصبرون على تسفيه ذائلهم ونقائصهم ، ولو على
 سبيل المزاح . كذلك فان القراء لم يتقبلوا تلك القصة قبولاً
 حسناً ، ولم يتهافتوا على قراءتها تهافتهم المعتاد على تلغف مؤلفات
 دكتور السابقة . كان القصص الانكليزي ينشر قصصه في أجزاء
 متتابعة ، وكان يبيع ٧٠ الف نسخة من كل جزء ، فلم يبع من
 «مارتن تشوزلويت» إلا ٢٠ ألفاً . وهكذا ألزمت الامة البريطانية
 كتابها المختار ، الحد الذي لا ينبغي ان يتجاوزها ، فلزمه صاغراً .

*

ما أكثر الاعمدة الهوادي في مجتمعنا ! هي قائمة في كل
 طريق ، بل في كل عطفة طريق . ولو كانت هذه الاعمدة تهدي
 حقاً ، لم يكن بين الامم أهدي منا سيلاً ، فان مجتمعنا غاية
 من الاعمدة البكسيفية الترفقية ، لا يدعك بكسيف واحد
 الا ليلجلك الى ترثوف آخر ، حق لو ان امرأ أراد ان يصل فعلاً
 لما استطاع ! والحمد لله الذي لا يحمد على المكروه سواء .

قلت : ما أكثرها في مجتمعنا ! والآت أقول : ما أقلها في
 أدبنا ! والاصح أن يقال انها غير موجودة البتة . غير موجودة ،
 لا هي ولا غيرها . فان أدبنا مشغول بما لا أدري عن تشيل
 نواحي الحياة ، وتصوير اخلاق الاحياء أدب لفظي ، لا أدب حي .

أليس عجباً أن لا تجد في غير أغاني حنين العامة تمثيلاً
صحيحاً لنواحي حياتنا ، وتصويراً صادقاً لأخلاقنا الاجتماعية ؟
في هذه الاغاني يجد العامة صوراً واضحة بارزة لآلامهم وآمالهم
ومختلف أحوالهم . ونكاد لا نجد شيئاً من ذلك فيما عداها ، حتى
لو أن مؤرخاً بعد خمسين سنة حدثته نفسه باستشهاد أدبنا على
زماننا ، أو بالتماس صورة لمصرنا في أدبنا ، لكان أكثر تعويلاً
على ديوان شاعر الشعب حنين . لولا حنين لكان هذا العصر أبكم ،
ليس فيه من يشهد له أو عليه . هو إذن شاعر العصر ...

في أغاني حنين ، كما قلت في كلمة سبقت ، كثير من الهجو
لكثير من الرذائل والنقائص التي يصح أن ندعوها رذائلنا
ونقائصنا القومية . ولا ينكر أن هجوه ، على الاغلب ، مرشديد .
فهو يرمي الناس بأرجع القول وأنفذ السهام ، والناس يضحكون
ويتقبلون أغانيه أحسن القبول . قد يقص بعض الضاحكين
بضحكهم أو تهيجهم أسارىهم بإتسامة صفراوية ، ولكن أكثرهم
يستسلمون لضحك حر طليق ، أو تزدان وجوههم بإتسامة غير
متكلفة ، وكأني بهم يقولون للسهام التي تتساقط عليهم :
« حوالتنا ولا علينا ! » ويومنون الى جيرانهم من طرف خفي
غامزين ، عملاً بالوصية المأثورة : « جارك قبل نفسك » في الضراء ،
لا في السراء !

عذيق والرهجو : لاجتماعي

لقد استحدث حنين نوعاً من الهجو هو الهجو الاجتماعي .
 كان شعراء العرب يهجون أشخاصاً معينهم لما أرب وحزازات
 خاصة ، ولا يهمهم أكانوا في أقوالهم تلك صادقين أم كاذبين .
 فجاء حنين وتناول بهجوه ردائل الناس ومساوئهم بصورها لنا
 ويضحكنا منها ، ولا يهجه إلا أن يكون في وصفه صادقاً على
 الجملة . ليس الذنب ذنبه إذا قسام يطلب مادة لفته الشعري
 فوقعته يده على هذه القروح المصدة ، وليس الذنب ذنبه إذا
 كشفت له بصيرته عن عورات الاجتماع فمثلها لنا بصورة لطيفة
 بل « لمطقة » . من قال ان الفن رداء يجب أن يطرح على سواة
 لوح في غفلته ، ومن قال ان الفن طبيب جاهل دجال يخدع
 الحليل عن غلته ؟

كان الرياء الاجتماعي والحياة الكاذب ، ومسا زالا ، اليدين
 القويتين الاثيمتين اللتين تأخذان بضيق الفن فتخفقانه خنقاً .

كان الرياء الاجتماعي والحياة الكاذب ، وما زالا ، السدين

المنيعين المخوفين اللذين ينعان «الفساد» ان يناله «الاصلاح» بسوء.

فسواء علينا أنظرنا في المسألة من جهة الفن وحربته ، أم من جهة الاصلاح وضرورته ، وسواء علينا أخذنا برأي ابي الفرج قدامة بن جعفر إذ يقول في رسالته «نقد الشعر» :

«ان المعاني كلها معرضة للشاعر ، وله أن يتكلم منها فيما أحب وآثر ... وعلى الشاعر إذا شرع في أي معنى كانت من الرفعة والضعة والرقث والنزاهة ، والبدخ والانتاعة ، وغير ذلك من المعاني الحميدة أو الذميمة ، ان يتوخى البلوغ من التجويد في ذلك الى الغاية المطلوبة ...»

أم ذكرنا ضحكة فولتير الهازئة الموجعة ، الصالحة المصلحة ، التي كادوا يؤرخون بها العصر الجديد او يرمزون عنه بها ، فلا بد لنا في كلنا الحالين من ان نحمد الى حين هذه النزعة المباركة في أغانيه العامة . هو أولاً الشاعر المجيد فناً ، وهو أخيراً المصلح المحسن اخلاقياً واجتماعياً .

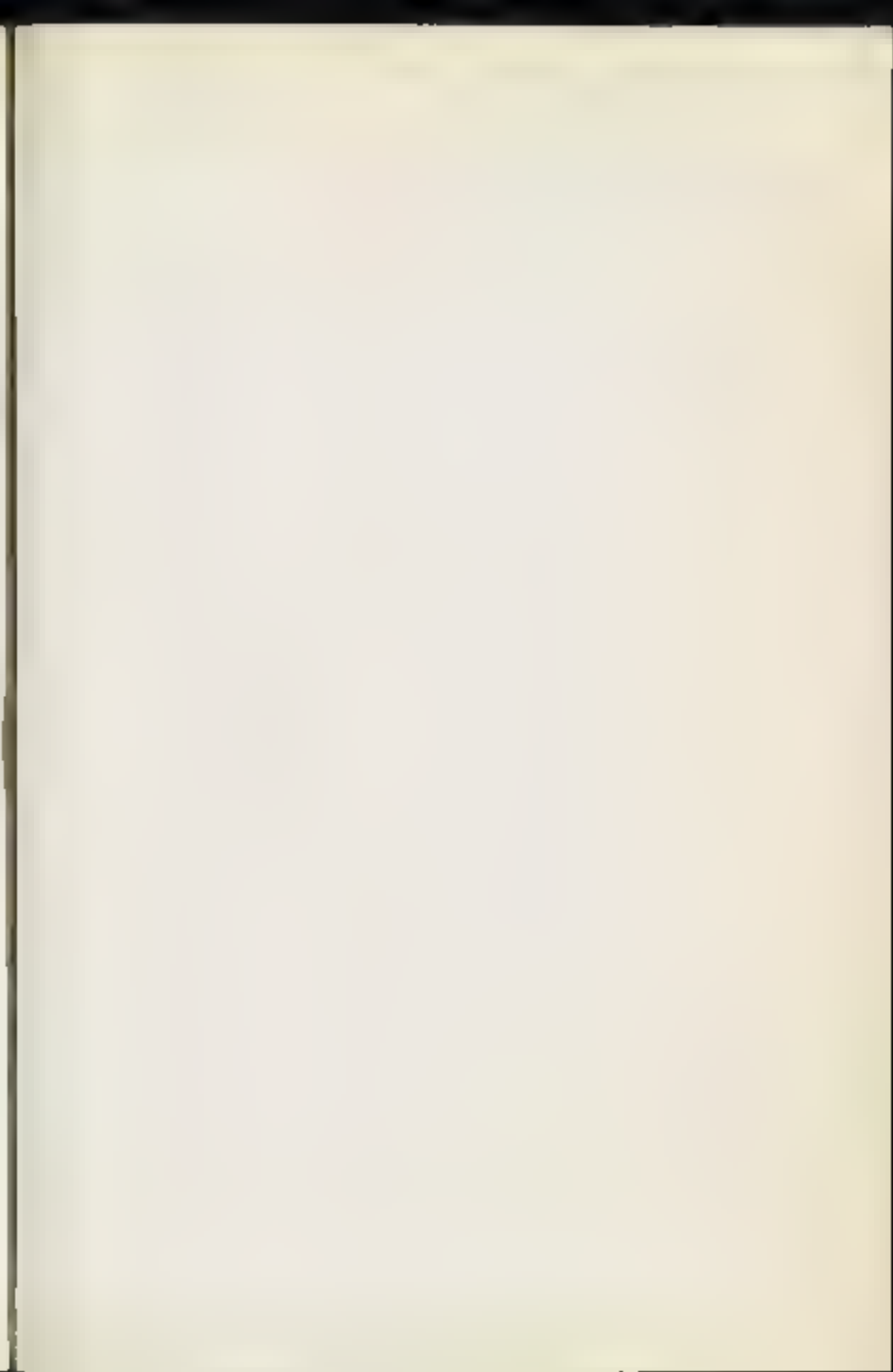
ان وراء هذه الأغنية «الحنيفة» التي لا تكاد تقل صفحة من كتاب ، قصة بنائها .. فاجعة بقصوها ، ولا بأس أن نسميها : «القرنان» (وهو لفة الرجل المشارك في قريفته) . تلك ناحية من نواحي الحياة لا يجرأ الادب في بلادنا على دخولها ، كأنني به يخاف ان يتهم «بسوء الأدب» . ترى ! أهذه الاجة التي تأوي

الى أدغالها الرذائل والمفسد والمساويء والحيفات بأنواعها
« حرّم » من دخل فهو آمن ؟

تريدون أدباً صحيحاً ؟ إذن فلندع الحياء الكاذب .
وتريدون اصلاحاً اخلاقياً ؟ إذن فلندع الرياء الاجتماعي .

١٩٢٨

الاحلام



للأحلام في الحياة شأن كبير، أو هي على الأقل نصف الحياة. والأحلام عالمٌ على حدته « تصح المقايسة بينه وبين عالم اليقظة أو الواقع » من حيث الاتساع وتراخي الأطراف ومن حيث الغنى بالحوادث والصور، بل أن عالم الرؤيا لأعظم سعة من عالم اليقظة وأكثر ثراءً. ومن قديم الزمان أخذ العلماء وغير العلماء، وما زالوا، يضربون في مجاهر هذا العالم، كما يستكشف الرحالون دنيا جديدة.

وإذا صحت المقايسة بين عالمي اليقظة والحلم من وجوه عدة، فليست تصح المماثلة بينهما تماماً كما يعارض الشيء بنقيضه، ولا يمكن الفصل بينهما الا بمثل ما يفصل الأقيانوس الدنيا القديمة عن الدنيا الجديدة اللتين تصل بينهما السفن الماخرة في عبابه، والانباء الطائرة في جوفه. وفي هذا المعنى، معنى المقاربة أو

المماثلة بين اليقظة والحلم ، يقول الغزالي في كتابه والمنقذ من الضلال :

«أما تراك تعتقد في النوم أموراً ، وتخيّل أحوالاً ، وتعتقد لها ثباتاً ولا تشك في تلك الحالة فيها ؟ ثم تليقظ فتعلم انه لم يكن لجميع متخيلاتك ومعتقداتك أصل وطائل ... كذلك يمكن ان نظراً عليك حالة تكون نسبتها الى يقظتك كنسبة يقظتك الى منامك ، فتكون يقظتك نوماً بالاضافة اليها . فإذا اوردت تلك الحالة ثبقت ان جميع ما توهمت بعقلك خيالات لا حاصل لها .»

وقد تبع العالم الفيلسوف «ديكارت» الفرنسي ، حجة الاسلام للغزالي في رأيه هذا ، فقال ما ترجمته :

«إذا اعتبرنا ان كل هذه الافكار التي تقوم في أذهاننا اذ نحن في اليقظة ، قد تخطر لنا ايضاً ونحن في سنة النوم ، دون ان تكون هذه او تلك على السواء صحيحة ، فينبغي إذن ان اضمح كونه جميع الأشياء التي في ذهني ليست أصح من تخيلات احلامي .» وبعد ان يذكر ديكارت انه كان اذا نام ، يتخيل في احلامه نفس الأشياء التي فكر فيها وهو يقظان ، يستنتج هذا الاستنتاج الاخير : «اتضح لي ان لا امارات يقينية يستطيع بها التمييز بين اليقظة والنوم» أو بين الحقيقة والحلم ، بوضوح وجلاء»^(١)

(١) واجمع كتاب (آراء غربية في مسائل شرعية) ترجمة المؤلف .

وليس الحلم ، كما يتبادر للذهن وهلة أولى ، قاصراً على المنام وهو الحال المعروفة بشروطها الخاصة ، بل إن من الأحلام ما يدعى بأحلام اليقظة ، كما أن من الناس من يدعون بالحالمين ايقاطاً وهم الذين يفكرون ويتخيلون في يقظتهم كما يفكر ويتخيل الحالم المقصود بالذات ويكادون « يرون » فيما يرى النائم .. وما من امرئ الا مرت وتمر عليه احبانه يتملكه فيها شيء من القهول ، فيغيب عن العالم المادي الظاهر ، فيبينا هو مع اخوانه يتحدثون اذا به قد « تركهم » بفتة بقوى نفسه جميعاً ، و « راح » مع احلامه ، فيشمر جليسه بأنه انتقل الى عالم آخر ، عاالم الرؤى والاحلام ، فيلتمت نحوه ويقول هازأ ذراعه كمن يوقظ قائماً ، باسمه له كالعائب على انه فارق اخوانه دون استئذان او وداع :

ابن انت يا ؟ . ابن صرت :

فهو حينئذ لا يحجب قط بأنه هذا ، حيث قراه ، بل يبلس كالمعتذر عن ذنب فرط منه ، وإن يكن في اقصى ضميره آسفاً ، قائماً على هذا الثقل الذي قطع عليه « حبله الجبل » .

وهؤلاء الحالمون الايقاظ على درجات متفاوتة ، اولها درجة « رجال العمل » الذين يستغرق الجهاد حياتهم او يملؤها ، ما خلا سويغات قصيرة نادرة تضيق في الحالة النفسية التي أتينا على وصفها ، فيكون من ذلك ملهاة لهم وترويح لنفوسهم ، وآخرها

درجة 'رجال الحلم' الذين تستغرق تلك الحالة حياتهم اليقظي كلها أو تلاً جميع شعابها ، حتى يصبحوا عاجزين عن القيام بأي عمل مطرد ، لأنهم ، إلا فيما ندر ، غائبون عن العالم المادي المحسوس ، غرقى في بحر الرؤى والأحلام والخيالات والأوهام . وقد لا يحدون طمأنينة نفوسهم ومعادتها إلا في ذلك العالم ، فإذا اضطروا للعود إلى عالم المسادة أو الواقع بقوة من قواه القاهرة ، عادوا إليه مكرهين متبرمين بساورهم خوف وحيرة سكانهم فيه غرباء مساكين . ثم لا تلبث تلك القوة القاهرة أن تزول حتى يعوذوا بمسالمهم الذي الأقوى وعرفوا « جغرافيته » ووجدوا السعادة والطمأنينة في رياضه الغناء المسحورة .

يقول الشاعر العربي لحبيته :

ان كان واديكِ ممنوعاً فموعدنا وادي الكرى ، فلعلني فيه العاك

وكأي من رجل آذته الاقدار بالتمتع والحرمان من رغائبه العزيزة ، وعجز عن تحقيق مثله الأعلى لبعد الشقة بينه وبين الواقع الذي كتب له ، لكنه لم يستطع ان يوطن نفسه على الرضى بهذه الحيلة المريرة ، فانكمش وبنى من أحلامه المذهبة قصرأ يلوذ بفيته من هجير الحياة اليومية ، فهو يقول لثله الأعلى أو للسعادة ، محبوبة كل انسان ، ما قاله ذلك الشاعر المقيم لحبيته ، ضارباً لها موعداً في وادي الكرى والأحلام .

ومن «أهل الحلم» بل من أولهم وأولام بالذكر ، الشعراء
الذين يهيمنون في كل واد ، لا سيما في ذلك الوادي حيث ترح
الطيوف وتسرح الأتخيلة . ومن هؤلاء الشعراء السيد شفيق
المعلوف الذي نشر منذ أيام قصيدة عنوانها «الاحلام» .

في مجلس ضم بعض اخوان الادب ، تناول الحديث قصيدة
السيد شفيق المفلوف او مجموعته الشعرية الصغيرة التي سماها
«الاحلام» . فلما اخذه عليه احدهم ، بل اكثر من واحد منهم ،
هو ان فيها غموضاً وايهاً وتثويلاً . واني لأذكر كلمة قبلت
يومئذ في هذا المعنى :

«لا راء في ان لدى هذا الشاعر الفنى شيئاً يريد ان يقوله ،
لكنه لم يوفق هذه المرة توفيقاً حسناً ، او كل التوفيق» .

قلت : لا ارى هذا الرأي . انكم تنظرون في ذلك الشعر
بعين العقل وتحللونه تحليلاً منطيقياً ، وتندون انها «احلام»
واحلام شاعر ، وليست ميزة الاحلام في انها عقلية منطقية ،
كما لا يخفى . فانا وإن لم اقرأ القصيدة بعد ، اردت حكمكم هذا
عليها ، اردت اصلاً (او ميدئياً كما يقال) ليقيني ان الاحلام انما
تتنازع عن الحقائق بكونها عارية من حلل المنطق ، منعرفة عن
سجد المعقول ، والا لم تكن احلاماً . اذا كنا نقيس عالم
الرؤيا بقاييس عالم الحقيقة فلن يصح لنا حساب قط ، وإذا
كنا نحدث عن الاحلام بلغة اليقظة فمن المنعته ان لا نتفاهم ابداً .

والعمري لو ان هذا الشاعر قص عليكم في «احلامه» كيف انه في ساعة من ساعات الشيطان (او سوء الحظ) قتل احد خلق الله الابرياء ، فهل كنتم ترون ايضاً أن من حق القضاء او من واجبه ان يدين الشاعر باقراره ، ويعاقب «القاتل» على ما جنته يدها ؟

يقول علماء النفس ان الرؤيا فوضى ذهنية تلهو فيها ملكات النفس وتلعب ، في نجوة من رقابة الملكة الناضجة ويعنوت العقل . فالحوادث والصور تكون في الحلم مشككة متبيلة ، غير متسقة ولا متصلة ، بينما تكون في اليقظة منتظمة موجبة نحو غاية من الغايات ، متصلة بعضها ببعض على الصورة المعتادة المعقولة .

قد ترى ، فيما يرى النائم ، أنك سقطت من اعلى المأذنة على أم رأسك ، ولكن هذا لا يعوق الحلم على ان يستمر ، فإذا انت - ولم تمت ولم تنزعج - مشغول بأمر آخر . كذلك لا بأس عليك وعلى المنطق إذا رأيت فيما يرى النائم ، النار تضطرم وسط الماء ، او غير ذلك من الخوارق التي تعد في عالم الرؤيا اموراً بسيطة مألوقة غير خارقة . فمثل من العدل والعقل في شيء انت نقيس الحلم بقياس الحقيقة ، وان نطالب شاعر «الاحلام» بوضوح اكثر وانتظام اتم - هذا على فرض ان قصيدته تشتمل ، حقيقة ، على «احلام» سواء مما يراه النائم أم مما يراه الحالم اليقظان ؟

ولا يحسب القاريء اني اردت تفكهنه باتصال الاعتذار
 لشاعر قد يكون في غنى عن الاعتذار، او اني عقدت النية على
 الكتابة في موضوع الاحلام، فانتهزت فرصة سانحة يضمن الدهر
 يثلاثها، إذ استعرت عنوان تلك القصيدة لبقالاتي . كلا، فأنا لم
 اغرق في بحر الاحلام بعيداً عن ساحل الأدب والشعر، بل لم
 اخرج عن دائرة رحمتها لنفسي قيد شعرة . وليس الذنب علي
 إذا كانت السبل تطول وتقصر، وتستقيم وتلتوي، فتؤدي جميعاً
 في النهاية الى تلك الدائرة - كما تؤدي الدروب في القرية، كل
 الدروب الى الطاحون .

في فرنسا مذهب ادبي جديد يسمونه مذهب « ما فوق
 الحقيقة والواقع » *surréalisme* ويقول دعاة هذا المذهب ان
 النفس الإنسانية خلال العصور التي توالى عليها، قد احتكبت
 كثيراً من العادات، وتقيدت بكثير من التقاليد، وخضعت
 لكثير من المواضعات، حتى أصبحت وراثية فيها او تنزلت
 منها بمنزلة الوراثة . ويزعمون ان هذه حجب لا تمكن من رؤية
 الحقيقة الأصلية العليا التي ينبغي ان تتغذى بها الآداب والفنون،
 والتي لا تبدو من طلي الحفاء الا اذا تخلصت النفس من عادات
 تفكيرها وأقيسة منطقها، وانطلقت من قيود التقاليد الاخلاقية
 والمواضعات الاجتماعية، الملازمة لها في اخراجها الآثار الفنية
 والأدبية . ان العقل ملصقة باظلمة تصل بين الأشياء بصلات
 مصطنعة توهم الحقيقة ايهاً . وان العقل ملكة تقادة تتغير

بين الاشياء فتقصي شطراً من الوجود او تغفله وتغفلته هو الشطر
الافضل . وان العقل رقيب على سائر الملكات النفس مسيطر
عليها فهو يامر الخيال مثلاً ويكبح جماحه ، والاحسن ان
يترك الخيال المبدع يسرح ويمرح ، وحيله على غاربه .

والخيال المبدع ، كما يقول داعية هذا المذهب ، هو الذي
يوفق الى الفرار بما تواطأ الناس على تسميته بالواقع الذي لا واقع
سواء ، والحقيقة التي لا حقيقة غيرها ، الى واقع أخصب ارضاً
وحقيقة اكثر ثراء - الى حيث لا يساوي اثنان واثنان اربعة ا

لذلك كان دعاء الحقيقة المليء بمحذون في انتهاز الحالات
التي تكون فيها رقابة العقل على سائر الملكات النفسية ضعيفة او
لا اثر لها ، كما يحذّر الصوفي في طلب حالات الوجد والكشف .

ولا مشاحة في ان الاحلام ، سواء احلام اليقظة ام احلام النوم ،
هي الحالة المثلى لهذا القريب من الادب والشعر ، منها يستمدون
فنهج وأديبهم ، وشعرهم ونثرهم .

- إذن فالسيد شفيق المملوك صاحب الاحلام ، هو من
هؤلاء ؟ المحسب انه فكر في هذه الامور او خطرت له ببال ؟
- قد يكون ذلك وقد لا يكون . قلت لكم منذ تناول
حديثنا قصيدته اني لم اقرأها بعد ... سوف نرى .

كنت اقرأ قصيدة «الاحلام» فوقفت عند هذا البيت الذي
يقوله الشاعر معذراً ، لا عن ذنب او عطيئة ، بل عن انه
«يشرب» من عبراته ، ولعل اعتذاره عن ملوحتها :

وما الماء الا دموع تجمع منذ الخليفة من مقلته ...

فقلت : إذن لا حرج على المرء ان يذهب الى التبع رأساً ،
فيكسر عطشه بزال «المين» الاصلية !

وهذه مبالغة تذكرني قول احد الفلاسفة الاقدمين : «قد
تقرصنا إذ نحن نيام ذبابة» فنحنم بأننا قد «طعنا بسيف هندواني» ،
ذلك ان النائم يكون عرضة لعوامل خارجية تؤثر في حواسه ،
فتعظم الرؤيا هذه الصنائر وتبائع في تجسيمها . والمبالغة الى حد
الخروج عن دائرة المقول إحدى صفات الاحلام .

ما أنا بماتب من السيد شفيق المفلوف تشاؤمه الذي خيل
اليه وان الماء دموع الإنسان تجمعت منذ الخليفة ، والا كنت
مطالباً اياه بتعديل طبيعته ، حالماً أنا ايضاً بأن هذا المستحيل
من الممكنات . بل اني لاؤثر كل متشائم سوداوي الرأي في

الحياة على كل متفائل يرجي الخير منها ، وكثيراً ما احشر
المتفائلين في زمرة الخسوف قاتلهم ، بالرغم مني ، يضحكون جماعة
- ضحك البلهاء . ثم كيف اجرؤ على لوم هذا الشاعر الفقي وهو
يدعي امام المتشائمين ، المعري القائل :

الى الله اشكو اني كل ليلة
اذا نمت لم اعدم طوارق اوهاشي :
فان كان شراً فهو لا بد واقع
وان كان خيراً فهو اضقات احلام !

لست ألومه ولكني ارثي له من نوع رثائي لنفسي . فان احلامه
مأهولة بأفاعي تنفت سمها في قلبه ، ولا تنقلب هذه الافاعي ،
ولو لحظة واحدة ، بفعل الرؤيا الساحرة القادرة على كل شيء ،
ذراعي حبيبية ترشف ثغره رحيق النعيم . ولكن يلوح لي ان
صاحبنا ينعم بياسه ، نعم غواية المخدرات بما يدعون انه قاتلهم ،
فيقول :

وما روعتني رقطاء قت اداعيا مدمناً لثمها !

اما هذه «العشيرة الرقطاء» فهي... أحزرت ايها القاريء ما
هي ؟ اني دالتك على الطريق : اذكر «قرص الذبابة وطمعة السيف
الهندواني» . أحزرت الآن ؟ - نعم ، هو نربيج الترسيلة :

فنزيبجها بين هذي الانامل رقطاء تنفت بي سمها ..

وامعري هل في الوجود شيء تقدر الاحلام ان تغلبه بسحرها

المبين حية نحس ، كما كان يفعل موسى عليه السلام في عهد النبوات - غير التريج ؟ فان لم يكن ما تضمنته قصيدة السيد شفيق المعلوف احلاماً فماذا تريد ان يسميها ، او كيف انكر عليه هذه التسمية وقد شهدت في شعره تلك الاستعالة المعجزة ، استعالة التريج الى حية ؟ لا وراء في انها ، ان لم تكن احلاماً ، شبيهة بها كأنها هي ، والا فكل قياس باطل .

ستقول انه خيال الشاعر . فاجيبك : اجل ، وهو الخيال المبدع ، الذي عرضت له في الفصل السابق . وازيد اليوم انه لا يكون مبدعاً الابداع كله الا في حسابات انطلاق النفس - ملكاتها - من امر العقل الكسبي الذي لا يحيد قيد شعرة عن القاعدة الفائقة : (اثنان واثنان تساوي اربعة) وامثالها من القواعد ، ولو ترك له الامر جميعاً لما رضى قط بأن يخلط - مثلاً - بين تربيج النرجيلة والحية الرقطاء . بيد ان الخيال ، لحسن الطالع ، يوفق في غفلة العقل عنه « الى ابتداع اقيسة ومقاربات غير منطقية ، فكأنه يخلع ، حيناً بعد حين ، على هذا الوجود حلة جديدة . والحالة المثلى لايداع الخيال « كما تقدم ، هو الحلم الذي كأنه العالم الآخر ، يحنثه وناره ...

في «احلام» السيد المعلوف ، ما عدا ذلك الاعمى ، زينة في جمجمة وكرة نار وقفحة صور وهلمجرا . وفيها ايضا قبور ... ان العامة لم يدعوا شيئاً الا قالوه . والمثل : «من نام بين القبور لم يأمن الاحلام المرعبة» مشهور . واحسب ان الشاعر اذ وصف

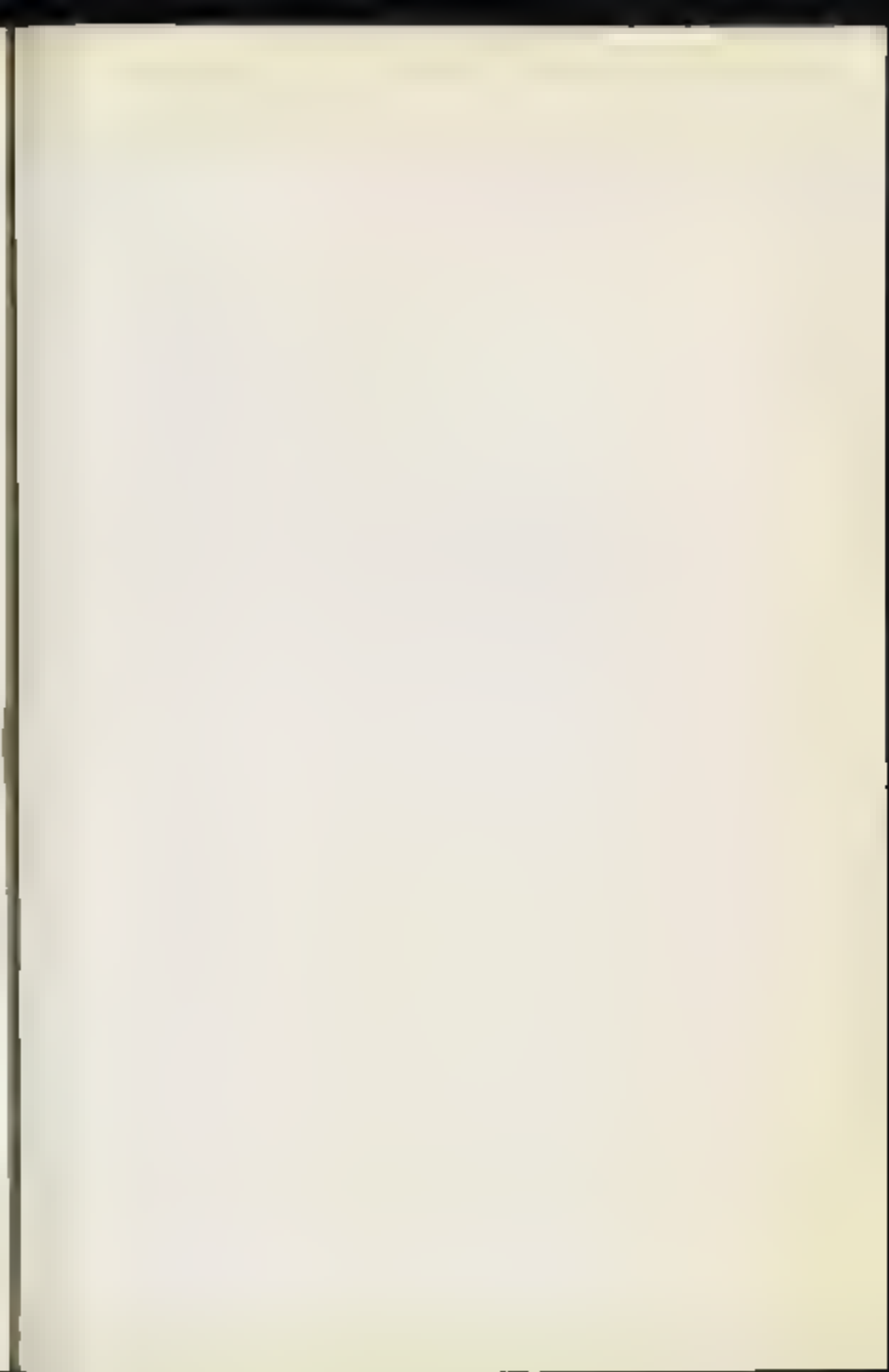
تلك الرؤى بقوله «احلام مقلقة» يتواضع قليلاً او يبالغ في التجلد ،
والا فهي ، على الحقيقة ، اكثر من «مقلقة» .

*

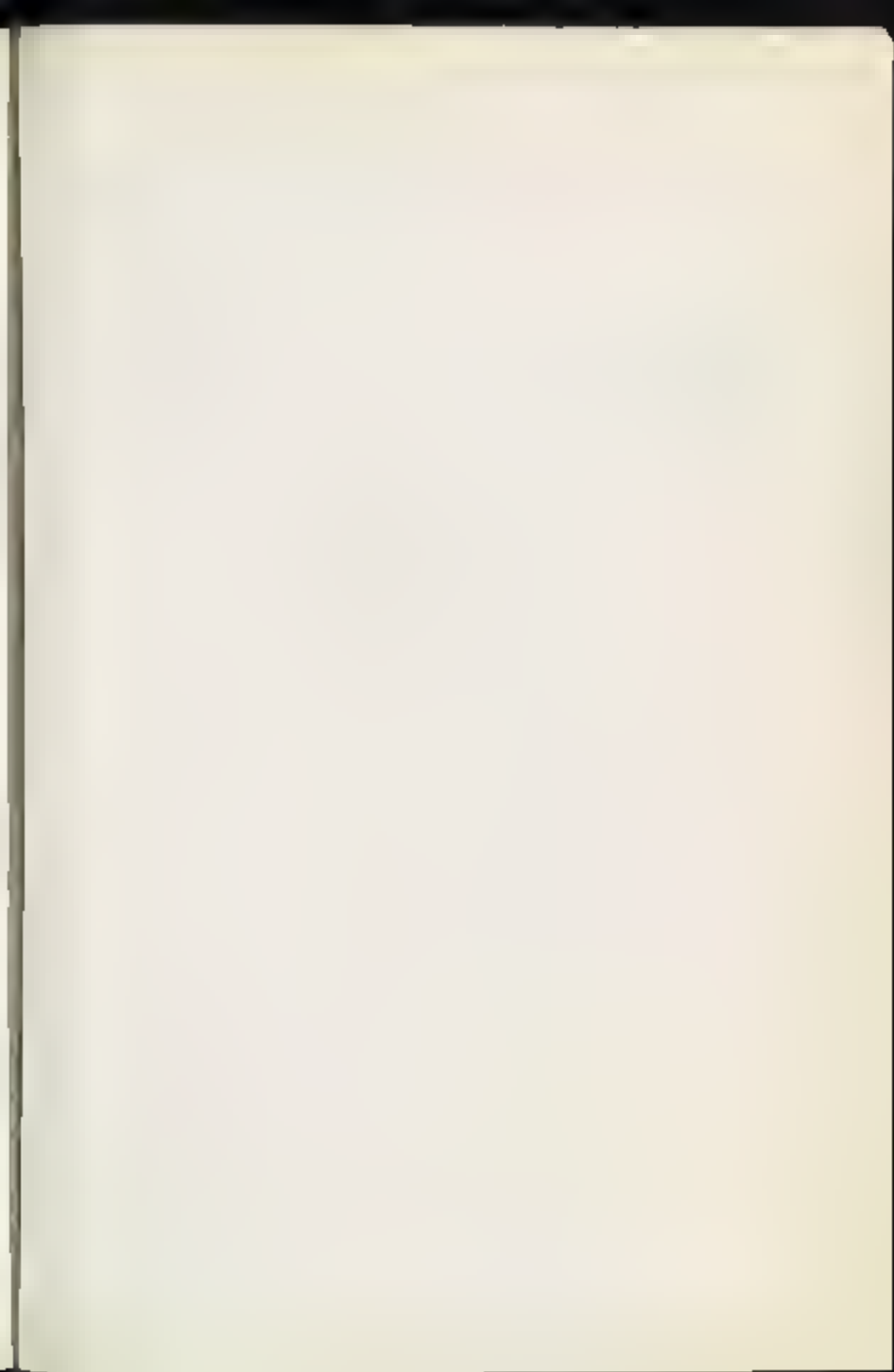
الآن والضرورات تقضي عليّ بختم هذا البحث في الاحلام -
ولم اتناول الموضوع الا من بعض نواحيه ، بإيجاز - فلا بد لي من
اظهار ما خالط نفسي ، وأنا اقرأ القصيدة ، من لذة ومن اعجاب
بمواهب ناظمها المطبوع وصوره الرائعة . لقد فتح هذه الشاعر
الفتى في الشعر العربي باباً ، فوجله بذهنية غربية على روحه
التاريخي التقليدي ، غربية السعة والطابع . ولعل غنابته بمثابة
السبك وجودة التعبير اللتين تخيلان ان تلك الذهنية ليست
غربية بهذا المقدار ، ان كانتا لا توهمان «الغربة» ايضاً ، اقول :
لعل غنابته هذه خير شفيح له .

تعرفت الى السيد شفيق المملوك منذ ايام وجلسات واياه
جلسة قصيرة اهداني فيها مجموعته الشعرية الصغيرة . فهذا ، وهو
قليل جداً ، يحملني على ان آذن لنفسي باسدائه نصيحة يغلب
على ظني انه في غنى عنها :

اما وانت يا شاعر «الاحلام» سوداوي المزاج ، يائس من
الحياة الدنيا هذا اليأس الاسود ، فقل :
«اعوذ بنفي ، ان في الفن عزاء وسلوى ا»



المرأة المجلوثة والمرأة الصديقة



في ذات يوم من أيام الصبي علمت ان الشاعر قد يغير على
الشعراء المتقدمين فيأخذ أفكار معانيهم ومبانيهم « سيايا » يملا
قتال . ولعل اول شعرة بيضاء نبتت في رأسي هي التي ارتخت
هذه المعرفة الرائعة ، فاني رأيت يومئذ في الحلم ، لص الدواوين
يتسلل خفية في الليل بين الاضرحة الموحشة ، ثم يموء بغنيته
سرقة من امتعة الموتى ، ويا للهول ! لا اذكر من قال لي بعد ذلك :
ان امر هذا الشاعر - الشاعر اصطلاحاً - هين جداً يكفي ان
نقول انه ليس بشاعر ، حقيقة ! وما هذا بنقد ، بل هو حكم
بالاعدام .

وما لبثت أن خبرت ذات يوم آخر ، خير الاديب الذي لا
يسرق قاصداً متعمداً ، ولكن لا ذاتية له واضحة ، فليس يبرز
من ذاتيته شيء في شعره او نثره ، وليس شعره او نثره اذن الا
كلامواج التي لا تغور حتى تغور زبداً وتذهب جفاء .

وأجل شأنًا من هذه الحوادث المفردة حادث الجميل الأدبي الذي يقتل التقليد والصنعة والبيانيات روح الصدق والبراعة والطبع ، فيه . فانه تأتي على آداب الاقوام ازمنة لا تخرج الا الزائف ، وبصح فيها القانون الاقتصادي القائل ان النقد الرديء يطرد النقد الجيد من السوق ، بل بلاشيه .

قرأت في كتيب قديم عن الادب الروسي ما خلاصته :
تأثرت اوروبا في عصر الانبعاث ، أي في القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، بأدبين عظيمين هما أدبا الاغريق واللاتين . فبعثت النماذج والانماط الجميلة التي خلفها هذان الادبان ، شعوراً في النفوس بسلطان الشعر الحلي والصناعة الدقيقة ، شعوراً قوياً هاج في الامم الغربية رغبة التوليد والابتكار . وكانت لهذه الاقوام شروط في المعيشة وآراء وعقائد خاصة ، ومثل عليها في الحياة تختلف عما كان للاغريق واللاتين في عصورهم . لذلك لم يكن نتاج الامم التي ورثت كنوز اليونان والرومان تقليداً محضاً ، بل اصبحت لها آداب حية طريفة ذات معان ومناح خاصة .

وتأثرت روسيا في القرن التاسع عشر بآداب اوروبا الغربية ، وخاصة بأدبي الفرنسي والانكليزي . لكن شروط الحياة الروسية تختلف بالكلية عما في فرنسا وانكلترا من ذلك ، فلم تر مسحة التقليد على ثمار قرائح المؤلفين الروس ، بل انهم كانوا يلاحظون

ويختبرون ، ملاحظة خاصة واختباراً صادقاً مطبوعاً جملاً
نتائجهم الأدبي مستقلاً متميزاً قائماً بذاته ، حتى قيل انه أثر كرت
الفعل ، في ذات تلك الآداب التي بعثت فيه الحياة من قبل .

فرنسة وانكثرة قطران عريقان في المدنية الثالثة . ويقدر
عراقتها ابتعاداً عن الفطرة الخالصة . ومن ثمار المدنية فيها تعدد
الطبقات الاجتماعية وكثرة المصطلحات أو المواضع ، ولهذين
العاملين اكبر الأثر في موقف الاديب وفي مناحي ادبه ، فهو
منقعل الذهن بها ، خاضع لسلطانها ، لا يمكن ان يصدق الصدق
كله وان يصدر شعره ونثره عن طبيعه ، خاصة . هذا هو شأن
الكاتب في فرنسة رغم اعتقاده ان الصدق والطبع من العناصر
الجمهورية في الأدب الحلي الخالد ، ورغم الحرية الواسعة التي ينعم
بها الناس في دائري الاخلاق والعادات . فانه لا يصدق خيفة
السخرية ، واكبر همه ان تستر الصنعة والكلفة ادبه . كذلك
هو الكاتب الانكليزي الذي يراعي ، ما وجد الى ذلك سبيلاً ،
جانب الاحكام المفردة في الاخلاق والعادات فلا يتعرض لها
بسوء . اما الكاتب في روسية فهو يتعرض الصدق جهده ، وما
يكتبه يتحدر عن طبيعه ، وطبعه سليم لا يشوبه كدر المواضع
الاجتماعية أو رياء الاخلاق السائدة والعادات المستحكمة . وهذه
الخاصة - خاصة الصدق - في الأدب الروسي ناشئة عن كون
طبقات الناس اقل في البيئة الروسية منها في اوروبا الغربية ،

وعن ضعف اثر المواضعات فيها ، ثم عن حسن اخلاقي صارم
دقيق لا يحجم عن اظهار المساويء وعن كشف عورات
الاجتماع . وليس ادل على هذا مما يذهب اليه تولستوي من ان
السكوت عن رذيلة كتمان لها ونصح واغراء بها .

ليس بهين ولا يسير وصف الأثر الذي تؤثره المواضع الاجتماعية والاخلاقية في أدبنا الحديث . واترك الأدب القديم جانبا ، فليس في نيتي ان اعرض هنا للأدب العربي في مجموعه ، لنلا تضييع هذه الخواطر الضئيلة في رحاب ذلك الأفق العظيم . ولكن قبل الكلام عن المتعارفات الاجتماعية والمواضع الاخلاقية التي تقوم حياتنا عليها والتي تفعل ، عن هذه السبل ، فعلها في حياة أدبنا ، أحب ان امهد لذلك بكلمة وجيزة في ما اسميه المواضع البيانية او العرف والمادة ، في الشعر نفسه .

من آثار هذا العرف الأدبي النفوذ في مطلع القصيدة ثم التخاص الحسن او السيئ ، الى المديح او الرثاء ، والفلو في توم صلات ، هوائية ، بين حادثات طبيعية لا يد لأحد فيها وبين شؤون لا يضيق بها صدر الطبيعة ، لكنها قد تم شاعرا او شوبعرا ، وقد لا تهمة ، في الاحزان والمسررات ، وحينما تصور

كحديثان المعلوم انه كان يجب ان تقع حوادث كونية جسيمة لا تقع عادة او يمتنع وقوعها فعلا ، مشاركة في حادث بسيط او مركب هو موضوع تلك القصيدة ، والشكوى من الزمان الخضم ومن صروفه المتعددة ، في مواضع معينة من قصائد معينة الخ .

صورة الكمال في تاريخ الأدب كما يفهمه أكثر رجاله صورة غابرة في الأدب القديم . لذلك كانت خلائق ادباء العصر ، في الغالب على تلك الصورة . وما ادري أمن حسن حظ الأدب ام من سوء طالع له ان يكون - او ان يرى - افضله نتاج طفولته ، بمعنى انه اذا صح هذا الرأي كان الأدب العربي في مجموعه كالحرم قاعدته ضخمة ، دق ودق حتى صار رأسه كالسلة ، يضؤل ويضؤل حتى يضمحل ! وفي تاريخ أدبنا ، هذا المصري ربيب ذلك القديم ، ويكاد يكون هو ، لولا الفواعل الطبيعية التي لا حيلة للناس في دفعها . ألت ترى الشمرام يتزاحون بالمناكب في الطريق الموطأة الرود التي يمشي فيها العميان بلا أدلة ولا عكاكيز ؟ ما أكثر المقولات المكررة والاكاذيب المفررة في أدب لا يفتأ يرجع ترجيع الطير الوحيدة النغم ، او يحتر اجترار الابل ذوات المعدنين !

اذا كنا في حجرة حبيبة الهواء لا ينفذ اليها النور ، او اذا كنا لا نعطي الا المتائل من مصنوعات مصنع أدبي واحد ، فليس السبب ان سلطان الانماط والنافذ الاولى كبير ، ولا ان الشخصيات

الأدبية القادرة الواضحة تكاد لا توجد في ظهرانينا - ليس هذا
 ناتجاً عن هذين السببين فحسب، فإن ثمة عاملاً جليل الأثر وليست
 تعدله العوامل الأخرى، هو الاعتقاد بأن في حياتنا ما لا يصح
 نقله بالصورة الفنية، أو إذا 'قدر' ونقل فلا يصح نقله على حقيقته .
 ولعل في ادبائنا من تحدثه نفسه بتصوير وقائع الحياة دون قوشية
 أو زخرف أو 'تمويه' ولكن لا جرأة له على ذلك، وهنا يبدو
 سلطان المواضع الاجتماعية والاخلاقية على الأدب المصري،
 فإن أدبنا لا يصور حياتنا الا كما تصور المرأة الصدئة المروسة
 أو المرأة المجلوة .

وعلى ذكر المرأة المجلوة وما تنقله من محاسنها صفحة المرأة
 الصدئة، نضرب في هذا السياق مثلاً: المرأة في أدبنا المصري
 وكيف ان الحلال والحرام « وما يقال وما لا يقال » هي وحدها
 محوم الأديب، في الغرفة الحبيسة الهواء التي لا ينفذ اليها النور،
 أو في الطريق الموطأة الرود التي يتخبط فيها العميان من غير
 أدلة أو عكاكيز .

قلت يوماً في سياق الكلام : « المرأة » محجوبة « عن أدينا
 بقدر ما هي محجوبة عن حياتنا . وانا الآن اقر بخطأي واقول :
 كلا ، ليس من العدل ان يقاس حجاب المرأة في الحياة بحجابها
 في الأدب . هو هنا اكثف منه هنالك ببضعة عشر ستمتراً ، ان
 احسنت التقدير . فاذا كنت تحب المرأة في دنيانا الشرقية
 الفانية « مرتين » « ظلاً خفيفاً لا تحب يقظتنا » او خيالاً
 فراراً لا تحب احلامنا ، فهي في هذا الأدب « المذكر » ظل
 الظل وخيال الخيال .

لا نزع من ان المرأة في مجتمعنا قد أحلت في المحل الارفع الذي
 يقول النساء كلهن والرجال بعضهم انها جديرة به ، فهي لا تزال
 بعيدة عنه جداً . واذا كنت لا تكاد تفقد المرأة في ديار الغرب
 طرفه عين ، او اذا كانت آثارها لا تغيب عنك ، حتى كأن
 المدنية بكل ما فيها من جليل فخيم ومن دقيق لطيف لم توجد

إلا لها ، والا موسومة بطابعها ، فانك تكاد لا تلقاها او تعثر على آثارها هنا في « مدنيتنا » وفي كل .. ما فيها ايضاً من لطيف دقيق ومن فخم جليل . لكنك على كل ، واجد في حياتنا من ذلك شيئاً ، واجد بالاقل « الشيء الحيواني » . بل انا على يقين من انك قد تعثر بهامات من اشياء متزهة عن تلك الحيوانية التي لا نذهب الى وجوب استئصالها من الطبيعة الانسانية ، وانما نجبرؤ على القول ان هذه الحياة الدنيا « غيرها » ايضاً .

فهذه الصلة الاولى بين الرجل والمرأة ، لا مرأه ، موجودة في حياتنا ، ولسنا نجد لها في أدبنا اثرأ . واذن فهذه المرأة الصدئة لا تنقل من محاسن المرأة المجلوة ولا المحبوبة قليلاً او كثيراً . بل يخيل الي ان أدبنا هو من تلك المراتي الخبيثة الخداعة التي تمسخ الوجوه وتشوهها فتقصر وتطول ما شاءت من رقة وضخامة ، حتى لتنكر الوجوه المكيئة صورها العكاذبة ، حانقة متسائلة في حيرتها ، قائلة : من الشيطان الذي لعب علينا هذه اللعبة ؟

وبعد ، فاية صورة من المرأة تنجلي على مرآة أدبنا ؟ يخطر ببالي الآن ان اسأل احد الرسامة المجهان الطرفاء فثيب تلك الصورة التقليدية التي حفظها الشعر العربي ونقلها البنا « دورت تصرف » كأنها اثن الكنوز واغلاها : « من الوجه كالقمر » الى « القامة كغصن البان » ، المركز في كتيب الرمل » . . . ثم

أطرح على الصدر المرمر ما شئت من « رمان النهود » أو اثبت ما طاب لك من « حقائق العبر » الخ ... ما أتايتك من الغزلين هذه التشابيه الجاهزة ، فما كان أحسنها وأبلغها - على ما نتصور - لأول عهد اللغة بها ، ولقد قال أول من قالها ، شيئاً جديداً أثر في نفوس السامعين أبلغ الأثر . كانت « قوالب » ، وكان كل شاعر يأخذها على سبيل العارية ، فيصب فيها استعارات وتشابيه اخذها بالدين أيضاً : هذه هي القصة من قامت بها إلى خاتمتها .

صورة المرأة في أدبنا - مي ودعد وهند أو (سعاد التي بانث ..) كل هؤلاء أو أحدهن أو لا أحد . صورة غامضة مبهمه ضائعة . لا ذاتية ولا مسبوقة ولا شيء تعرفها به ، أو هو ذلك « الشيء » الذي لا شكل له يوصف : تراه ليلاً في أزقتنا الملتوية الضيقة كصدر المغنوم في ملاءة سوداء ، فتعش لأول وهلة أنه هم أن يتضاهل ويتصاغر ويتعجب ، متسللاً في ظلال الجدران القاذرة الموحشة ، ويقولون أنه « امرأة » .

أما الجمال وما يوحيه إلى النفس من معاني السمو ، الجمال بلطفه وانوثته ونعومته ... وأما الحب وما يبعثه من متعة ونعيم لا يحمدان ، الحب بذله وكبره ، وقوته وضعفه ، وطمانينته وقلقه ، وبرده ولذعه بل بكل متناسباته ومتناقضاته ، فليست وأجداً بعض ذلك . ولعمري إذا ما قضي على عنصر الجمال في الأدب ونضب معين الحب ، إذا فقدت ذائقة الجمال وخبرة الحب ،

فهل يظل الأدب حياً طلياً ممتعاً ؟ لن يكون ذلك « الصدر المرمر » اذن الاقبرية كتب عليها : (هو الحي الباقي !)

المرأة - الام والاخت والزوج والعشيقة ، والقوادة سفيرة الحب التي يدعوها الترك دلالة الهوى . هل رأيتموها وهل عرفتموها ؟ ان أدبتنا لم يرها ولم يعرفها . كتب الجاحظ عن لصوص الليل ولصوص النهار ووصف جماعة الشعاذين في عصره ، الذين نبشوا في الشعاذة ، طبقة من الناس على حدة ، لها مرامم ومصطلحات ولهجات وعادات واخلاق خاصة . ارجع الى كتاب البغلاء بيد لك الهدف الذي نرمي اليه . لقد وصف الجاحظ الشعاذين في عصره بدقة وبراعة ، وانطقهم واحياهم . فماذا علينا ان يكون هو الامام الذي به نأتم ، ان كان لا يد من امام ؟

ماذا علي اذا حدثتني نفسي يوماً - النفس الامارة ، بان اصف دلالات الهوى ... ماذا علي اذا طمعت او اطمعت اخواني بان نصف المرأة كما هي في الحياة على انواعها ، وفي جميع احوالها ، وفي المباح والمنكر على السواء من صلاتها بالرجل ؟

تقضب « الاخلاق » وبشيمز « الحلال والحرام » من الغيظ ، ويخاف فلان مثلاً سطوحامة المجتمع وآدابه عليه ، اذا هو نوي صقل المرأة الصدمئة لتنقل بحاسن المرأة المجلوة كلها « فيجمع عن وضع قصة « دلالة الهوى » واذاغتها بين الناس .

رحم الله امرأ القيس قائد الشعراء الى النار ، كما في الحديث .
 سأمتدي في هذه الثقلة من فصل المواضع الى فصل الاخلاق
 يهدي الملك الضليل ، الشاعر المقامر المقامر ، الشارب الخمر
 واللاعب بالنرد ، صاحب دارة جلجل - بنفسه دارة جلجل ا
 والملمي المرضع عن محولها ذي التاتم : حياة وقذبة جاهلية ولا
 اخلاقية . لو كانت رواية موضوعة لعدت في الطرف القصصية
 او في الصور الفنية الجميلة . واني لأتساءل ايها احسن : شعره
 الذي نظمه أم حياته التي بددها ؟ ولست على يقين من ان شعره
 يفضل حياته . كيف ؟ وهو جزء منها ، ليس الا من يستطيع
 ان يفصل بينها أم من يستطيع ان يجد في حياته عناصر لم توجد
 في شعره ، وعكس ذلك ايضاً ؟ لعل الاصح ان تقول : كانت
 حياته شعراً في « حالة العمل » وكان شعره حياة « منظومة » .
 هنا اقف القلم هنيهة لاعتذر عما سبق به من رد المعجز على الصدر ،
 فبرغمي ان الحياة والشعر والشعر والحياة « لعباً على حبل

بحا الغلو في اظهار فضائل الإسلام كثير أمن فضائل الجاهلية ،
وطمست المبالغة في الاشادة بمحاسن الدين الجديد على كثير من
محاسن الوثنية ، إذ صور ذلك النصر البائد بأشد الالوان سواداً
ليطلع منها العهد المحدث بأشرق وجه واصبحه . وبطلب على
الظن انهم لم يفكروا في الرجوع الى ذلك التراث المهجور الا بعد
ان انفرجت الأزمة الدينية قليلاً ، ومرت السنين على الوهلة
النسوية الاولى ، قاضطروا بقيام الشعوبية واستفعالها الى النباش
عن تلك الدفائن . ويخيل الي انهم وجدوا عصرئذ ما كانت
موجوداً .. وما لم يكن له وجود ، فقالوا ايضاً وافرطوا من
بعد ، كما فرطوا من قبل .

فضائل الجاهلية ومحاسن الوثنية اأقول : كبرت كلمة ؟
لا ، قلت اعني : دينياً او اخلاقياً ، وليس هنا موضع معارضة
ذلك القديم المثل في الحجارة بهذا الجديد الحي في القلوب ، ولا
مقابلة ذلك الأول الأقرب الى الفوضى بهذا الآخر الادنى من
النظام . انما عنيبت المادة الأدبية او الفنية التي استمدتها المملقات
مثلاً . واعيد القول دفعاً للالتباس وزيادة في التأكيد : لا يذهب
الفكر الى القيم الدينية والاخلاقية ، فاني قصرت واقصر الكلام
على القيم الأدبية والفنية الصرف .

اذا ذكرنا الآن ما سبق ذكره من فعل المواضعات البيانية

والاجتماعية والاخلاقية والتقاليد والاحكام السابقة وخوف
 السخرية وتعدد طبقات الناس في سلم الاجتماع - أي العوامل
 المختلفة التي وصفنا آثارها في الآداب وضرربنا لها الامثلة - كان
 اول ما يتبادر الى الذهن ان المهد الجاهلي من وجهة نظرنا في
 هذا البحث هو المهد الأدبي الامثل ، لضعف اثر تلك العوامل
 جميعاً فيه . وإذا كانت حياة امريء القيس صورة مصغرة لذلك
 المجتمع العربي ، فان شعره هو النموذج الاعلى لأدبه ، الأدب
 الجاهلي الوثني الطليق: لم تقم عليه المواضع والتقاليد والبيانيات
 فتقصيه عن الفطرة السليمة والطبع الصادق ، ولم يقر بالهموم
 والمقاصد الاخلاقية التي تحول سياقه من الفن الخالص الى الوعظ
 المشوب ، والوعظ ان جاز ادخاله في الأدب فأحر به ان يعتبر
 ابعدا الانواع عن حقيقة الأدب وطبيعته .

نجد في كذب الأدب القديمة أن امرأ القيس اول من صنع في
 شعره كذا وكذا ، وهو اول من شبه كذا بكذا الخ . فان لم
 نأخذ هذا القول على حقيقته او لم نؤمن بصحته « تاريخياً » فلا
 اقل من حسابانه رمزاً او اتخذاه مثلاً يستطيع الشاعر العبقرى
 ان يؤثّر من ذاته المعنوية في لغة قومه وأدبهم ، وهو المراد
 بالطابع الذي يقال انه خاص ولا يعنى اثره . بيد انه لا يكاد
 « يقع في الملكية الشائعة » حتى يتهاقت عليه فقراء الشعراء ،
 يستعبرونه كما يستعبر فقراء التجار « توقيس » ذي الاعتماد
 الموثوق يفتحون به لسندهم باب السوق . ثم يشيع استعمال ذلك

الطابع ويكثر تداوله ، منافساً العملة الدارجة ، فيتألف من ذلك ما يسمونه المواضعات البيانية او المعروف الأدبي او كليشه الكلام . ثم تختم هذه الفقرة الفاترة بنبوغ شاعر عبقرى آخر يكون هواه في ان يحكم بطلاق تلك الالفاظ بعضها من بعض ، مفسداً موقعاً البين هادماً اليوت ، المتداعية تأقاً من طول العشرة الالفة المخدرة ، ثم يتحول هواه الى عقد زواجيات بين تلك الالفاظ جديدة عجيبة ، غير محتذ مثالا ، بل موقعاً توقيعه طابعاً بطابعه ، ويقولون في ترجمته : هو اول من فعل في شعره كذا واول من شبه كذا بكذا ، وهكذا ...

ابتدع امرؤ القيس ووضع ، وتواطأ الشعراء من بعده وتواضعوا . ابتدع لانه - ولست اعلم هل عمر طويل - عاش كثيراً وشقي ونعم . هو العياش ، صاحب عقراء والعذارى والحبل والمرضع . فجع بابيه قلاء أناه الحديث ، لم يشأ ان يجمع بدست الرد الذي كان بدأ به وقال كلمته المأثورة : اليوم خمر وغداً أمرا هوى تاج الملك عن رأسه المزهر المتخايل عجباً ، فهو شريد طريد . لقي حتفه بحلة قيصريه مسمومة لأنه رفع عينه الى ثريا الروم فقتلته الشهوة . لقب « ذا القروح » وقبل كانت له كبد مقروحة دلل عليها فأياها عليه الناس لا يشقرونها . حياة فيها عناصر التراجيديا جميعاً ، وكانت زهرة الارستقراطية العربية في ذلك العمران الوثني . كذلك في شعره مذهب فلسفي في الحياة : النزعة الابيقورية . وتقوم ابيقوريته على اربعة

اركان ، مثل كل بيت . الصيد والخمر والمرأة والحرب . لعله الآن
يدور مع الشعراء في أحد بروج الجحيم - رحم الله قوماً يقودهم
الضليل - وهويشد وهم ينشدون :

كأنني لم اركب جواداً للذة
ولم اقبطن كاعياً ذات خلخال
ولم اسبأ الزق الروي* ، ولم اقل
لخيلي: كرى كرة بعد اجفال!

فاذن لم يعرف امرؤ النقيس ، سواء في حياته أم في شعوه ،
المواضعات الاخلاقية التي تورث صفات الجبن والمداجاة والرياء في
حياة الناس وفي أدب الادباء ، او قلنقل انه كانت في عصر امريء
النقيس « اخلاقية » خاصة طوتها الاخلاقية الاسلامية الجديدة .

لنا صديق زعم انه يحب بتمجيد تلك الجاهلية الوثنية ، ويميل
الى الاشادة بمحاسنها ، لا لأنها شطر من تاريخ العرب وعنصر في
قوميتهم - شطر جليل وعنصر نقيس أقصيا عن التاريخ
والقومية - بل لأنه خرج الصدر جرداً بتلك « الطفرة » الاسلامية
كما يقول ، يؤلم نفسه غلوها في النعمي على ذلك الطور اخلاقه
وعاداته وارضائه وعباداته . زعم انه سيعمل على « احلال
الشیطان في صدر الإنسان » وسيعين على ارجاع ابليس الذي
أخرج - كما يقول - من جنة الاساطير الدينية ، الى جنة الآداب
الرفيعة ، يريد انهم افراطوا في تنفير الخلق من طيبات المعيش

حلالها وحرامها ، وبالفوا في تزهيدهم في ملذات هذه الدنيا
المعاجلة ، وغلوا في الحث على قتل الشهوات الطامحة واخماد
الاطماع المضطربة . يقول : ان إبليس عنصر لازم في الادب
وعنصر لازم في الحياة ، فاذا أخرج منها طرداً بالسياط او رجماً
باللعنات ، كانت الحياة ثوباء ممسدة بين القطبين تصل الازل
بالابد ، وكان الادب أنشودة السامة .

هذا رأي فني متطرف مولع بالاغراب في الرأي . ولست
أدري ما نصيبه من صحة الحكم ولا ما سيكون حظّه من المجاز
الوعد . ولكن احب ان اشرح في هذا الصدد ما اعنيه هنا
بكلمة « لا اخلاقية » . است اعني ما كان منافياً للاخلاق
المصطلح على انها فاضلة او ما كان داعياً الى نقبضها ، حائثاً عليه .
كلا ، فانا اعني ما كان خلواً من الهدوم الاخلاقية مجرداً من نية
الوعظ وقصد العبرة ، واعني هذا ليس غير . فقد تأتى العبرة
الواعظة عفواً وقد تكون أبلغ كذلك ، ولكنها اذا لم تأت ،
فيا للقرء ! ليس هذا بضار الادب من جهة انه ادب صرف .
كثيراً ما سمعت اخواناً لي يتسائلون متكررين : ما المغزى من
ذلك كله . وماذا يريد هذا المؤلف . واين العظة والعبرة النخ؟ فما
يديرهم ، لعل الشرط الذي تقتضيه طبيعة الادب هو ان لا يكون
مثقلاً بالهدوم الاخلاقية . وعسانا ان مد الله في عمر هذا البحث
فيمد المدى ، نلتقي في منعطف الطريق ، بين الدخول فحورمل ،
باوائك الحكماء الذين لا يرون في الادب الا لهواً ولعباً ولذة

ومتاعاً ولا يحبون الادب الا كذلك . وقد نلتقي في منعطف آخر من يقولون ان الادب لا يتناقض الدين والاخلاق فحسب ، بل يتناقض الحياة ايضاً ، والمشهور انه مرآتها وصورتها ورجائها .

كلمة اخيرة يضعها القارىء في الحاشية : هذه امرأة قبيحة غاية في القبح ، وهذا رسام فنان . نسخت الريشة الحاذقة الصناعات تلك الصورة « القبيحة » - نقول : يا لها صورة فنية « جميلة » ! وهذا القصص الجميل الالمعي وصف رجلاً من شذاذ الناس الخوارج على النظم والشرائع ، الذين يحبون ويموتون على هامش المجتمع وتقاليد الدين الاخلاقية ، وصفه بدقة ومثله لنا ببراعة - نقول : نأله لقد أجاد وأحسن !

في الفنون والادب اذن غير قيم وغير احكام .

— الله ، ما اجل هذا الحجاب !

كان اول التفاتي الى صديقي الذي همس بهذه « الصرخة » .
 قال كلمته بلمحة تضمنت معاني الاعجاب والتلذذ والشوق .
 وكنا بانتظار الترام في عرنوس^(١) ، ظهر يوم وضاح يشعه الغبار ،
 متردد بين الشتاء والصيف لكنه الى لذع الحر أميل . رأيت
 الدهشة في عينه وبصرت به وهو يكاد ينجذب الى حيث ينظر ،
 مأخوذاً . أتبعته نظري نظره فتسابقا خلف ذلك الطيف الذي
 مر معجلاً على بضع خطوات منا ، وكأن يبتننا ويبدنه لج بحر
 خضم . كنا في مثل اليقظة الخائبة التي تعقب حاماً هائلاً رغيداً
 انقطع فجأة . حقاً ، ما كان اجل ذلك الحجاب !

واخذ صديقي المفتون يصف تلك القامة الهيفاء في علامة لا

(١) عرنوس : حي معروف بنمشق

تكاد تحجب من خطوطها شيئاً ، بل تزيد دقة ووضوحاً :
الجسم مفرغ فيها كأنها منه وكأنه منها — جلدها جلد . وهي في
ازارها السماري كحورية استعارت في هبوطها الى الارض ،
زرقة الجو الصافي ، على احدث زي وارشفه والطفه .

واخذ يصف ذلك البرقع الاسود الذي يكاد يشتعل بنور
ما تحته . لا يكتم من الحسن الا بمقدار ولا يشف عنه الا بمقدار .
ليس هذا بشراً ، إن هو إلا لغز جميل يفتنك منه ما ترى ،
ويغريك بما لا ترى — يا ترجوه وتغيبه .

من لي يعلم ما احبب يومئذ صديقي ؟ خيل الي ونحن واقفان
عند عمود القرام انه انقلب بفعل السحر المبين شجرة من اشجار
الربيع ، مزهرة ، اوت اليها صفار الطير ليلاً ، وقامت قرية
مطمئنة مكري بمبير الازهار . لكن رامياً رمى الشجرة بحجر
عابثاً ، ففزع الطير وتناوحوا ، فهم ذاهبون صعداً في الجو بينا
الازهار منشورة على الثرى اشتاتاً ، وكأنه سلك من الطيوب
والانغام انفرط في يد الطبيعة . لقد اخذت الخواطر والعواطف
تتراحم في صدر صديقي وتتراد على لسانه متتابعة متدافعة .
فمنها ما كانت الالاماني تحمله على اجنحتها فيحوم في الفضاء الطلق
المشرق ، ومنها ما كان يسقط على الارض بثقل الحنية والقنوط
والعياء كأوراق الخريف الصفراء . هكذا بسم صديقي في برهة
وعبس ، وازهر وصوح ، ودعاش ومات ، لكنه على كل ،
اقاض في حديث عذب شائق مستحب ملاً انتظارنا ذلك القرام

الذي لا اراه مقبلاً إلا احبه يتلکأ ويهم بالقول (هذا من عبث الخيال ، لان الترام بطيء ليس الا ، ويزيد في بطشه انتظارى اياه . اما انه اخيراً يأتي فما لا ريب فيه .)

واخذ صديقي يتحدثني عن فلسفة الملابس والازياء ، ملأ بوجهي الفن والاخلاق او الجمال والنفع ، قائلاً انها على طرفي نقيض والغلبة ليست في النهاية للاخلاق او للاخلاقية السائدة في هذا العصر على هذا المجتمع . ومما اشار اليه اشارة خفية ان الحجاب لا يؤدي وظيفة ، في الحاضر او يؤديها معكوسة : اصبحنا فاذا بالحجاب الذي وضع لدرء الفتنة لا يحجب شيئاً بل يكشف عما قد لا يكون لو لم يكن حجاب . يقول دون جوان زير^(١) الغرب او تقول اسطورهه : ان النصرانية اذ حرمت العشق اضافت الى مذاقه لذة جديدة وضاعفت المتعة به . ومن ينكر غواية الاعراض الذي ترجوا قبالة ، واغراء المنع الذي تطمع بقبوله ، ونعيم الحرمان الذي يبنى بالعطاء ؟ ومم صديقي ان يزيد : كذلك فتنة هذه الاحجية التي مرت بنا معجزة مغمورة بالاسرار كالطيف الشارد من حلم . لكن الترام اتى - ألم أقل انه آت لا ريب فيه وان ابطأ ؟ .. العجلة من الشيطان لا من الترام - فاكتمنى بان قال : خاتماً الحديث : عن ذلك عزاء لهما الصديق ، هو ان الحجاب الذي يفتن العالمين ليس اول وضع

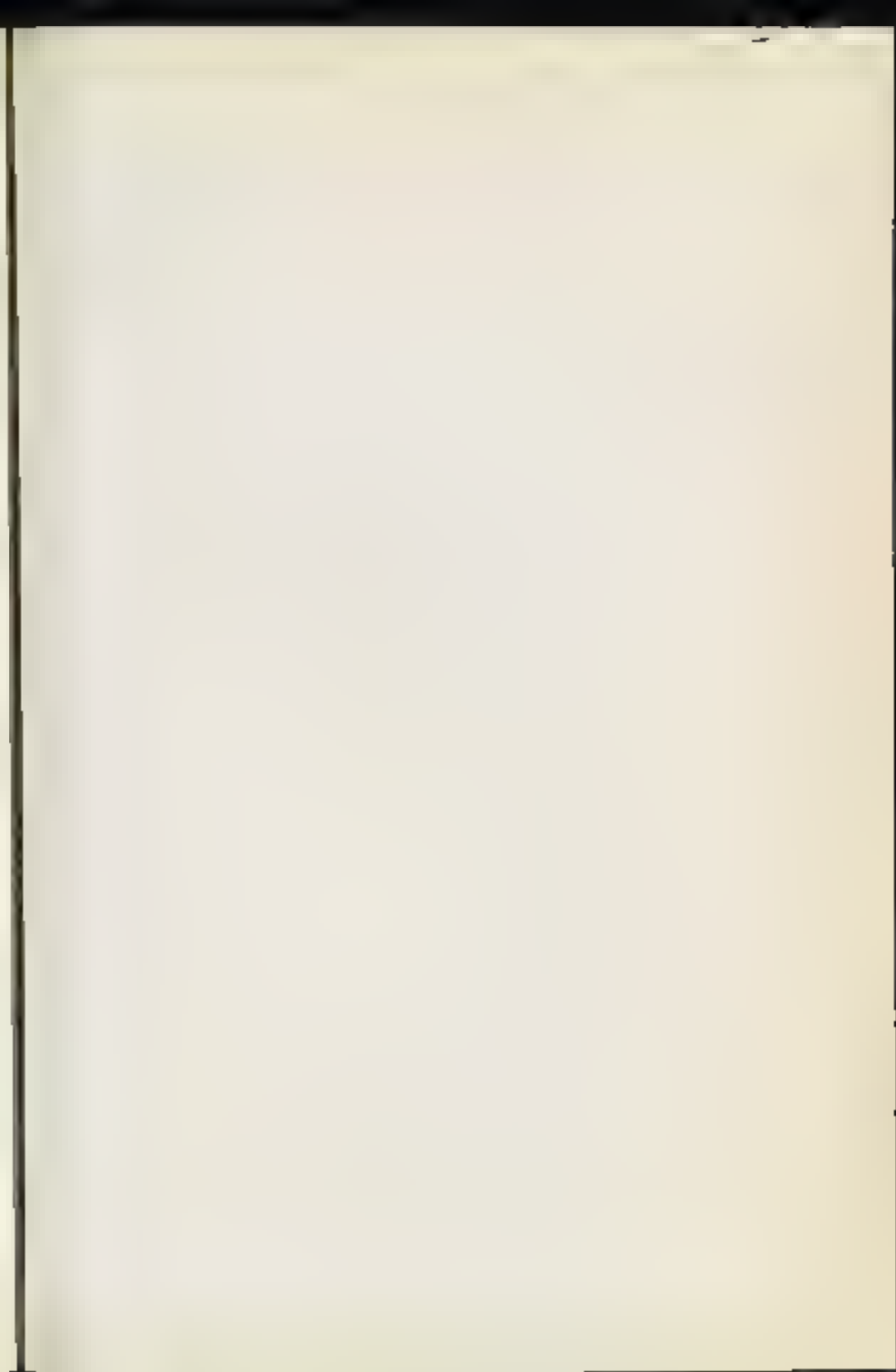
(١) الزير : الكثير الزيادة للنساء ووث جوان علم على رجل اشتهر بالفامرة في حب النساء واختلاطات سيرته بالاساطير .

اجتماعي اخلاقي انتهى الى غير غايته ... وبعد ؟ انه لجليل ،
والطبيعة لن تغلب ، والناس الا قليلا مرآؤون . ثم سقطت بيننا
هذه الكلمة : « الله ، ما اجل هذا الحجاب ! » مترددة وجلة
كورقة من اوراق الخريف . فاذا بصديقي المفتون ، امامي في
مقدم « الحافلة » كشجرة تعرت من زينتها ، يحدث صامتاً عن
صكابة الحرمان المطلق والم الشوق المذيب وعذاب النفس
والحواس .

احسنت ان صديقي في تلك الظهيرة لاني له انقياء
فانصرفت عنه . لكن ظللت زمناً اسمع في نفسي صدى تلك
الانغام التي انبعثت من الشجرة المزهرة ، تحت طالع مسعود .

١٩٢٥

فصل من
كتاب الشيطان
في الالهام الشعري



الساهر ليس له شيطان

طاهر بل له ظل ...

قد يكون ثمة عالم آخر ، غير عالمنا المادي المنظور ، مأهول
بالأرواح الخيرة والشريرة ، لا يطلع عليه الناس جميعهم . ليس
ما يمنع وجود ذلك العالم وقواه العجيبة ، فان ثبات البشر
على الايمان به في صورته المختلفة لدليل قاطع - لا اقول على
وجوده بل على الحاجة اليه ، وشيء يؤمن المرء به ويحس الى
الايمان به حاجة ، هو - وان يكن غير موجود فعلاً - أعظم
خطراً واكبر أضراراً في حياته ، من موجود لكنه مجهول ولا يؤمن
به ولا يجد من جراء الكفر به نقصاً . ولعمري هل للاشياء
في ذاتها وجود ام هي ظلال الفكر الانساني في هذا الفضاء ؟
وهل للاشياء في ذاتها قيمة ام هو الفكر الانساني يعطي القيم
ويحرم منها ، كما يشاء ؟

وسواء أصبح وجود ذلك العالم العجيب ام لم يصح ، فليس
 اجدر من الشعراء أن يكونوا به على اتصال « وهم في كل عصر
 وجيل ، حلة الالهام العاوي الناطقون باللغة القدسية ، الذين
 يسترقون السمع من عالم الغيب استراقاً ليمود منه بانغامهم
 الساحرة ، ويملاون من محاسنه اعينهم ليخلعوا على الكون «
 كلما ابلى من حلال الجمال حلة ، جمالا طريفاً . فلو لم يكن ذلك
 العالم موجوداً لأوجده الشعراء .



سألت ذات يوم : كيف صرنا لا نرى الجن والشياطين بمد
 أن كانوا على اتصال دائم بآبائنا واجدادنا ؟

فقبل لي : لقد رأوا الأنس في هذا الزمن « أشطن » منهم
 فلاذوا بالقرار ، وهالهم مسا في عالمنا من الشرور والآلام
 فهبهروه . وعلى كل فان الجن ما زالوا « يظهرون » لكنكم لا
 ترونهم انتم !

هذا جواب امريء متشائم يريد ان يبدي اسفه على المهود
 الحالية وحتيته اليها . والحقيقة ان العرب كانوا اسعد منا في
 فلواتهم حفظاً ، وآنس في خلواتهم بصحبة تلك المخلوقات
 المعجبية . فان احداً ليوجد احياناً من شدة الشوق الى سماع
 احاديث غير هذه الاحاديث اليومية التي تعود سماعها من هؤلاء

الاناسي ، ما يرضى معه النزول :

ببلدة ، مثل ظهر الترس ، موحشة

للجن بالليل في حافاتها زجل ..

وليس اكبر فضلا ومنة على الناس من المفاجآت التي تقطع
هذا السياق المطول في حوادث الحياة العادية ، فنذكرهم بانهم
احياء ، بل ان هذه المفاجآت هي التي تغلي ثمن الحياة .

اتواناري فقلت : منون ؟ قالوا :

مرأة الجن ! قلت : عمو ظلما (١) !

الا ان هذا الرجل الذي طرفته الجن ، وقد أوقد ناراً
لطعامه ، لسعيد ا يوركت الجن الذين آنسوه في وحشته ! هو
سمير بن الحارث الضبي ، اعني انه ليس صديقنا السيد حلیم
دموس (مثلا) الذي لم يطرقه الجن مرة واحدة ، ولن
يطرقوه ، لا اذا اوقد ناراً لطعامه ، ولا اذا اشعل مصباحاً
لنظم قصائده ، فان المسألة مسألة مزاج .

كان لكل شاعر من العرب شيطان يلقي اليه الشعر ،
يسمونه « التابع » او « الرئي » . فكان لحسان بن ثابت صاحب

(١) قوله « منون » اي من انتم ؟ ذكر علماء اللغة ان هذا اللفظ
نادر الاستعمال . ورأيي ان قيمته هنا في ندرة استعماله . فهي التي
جعلته خديفاً ان يخاطب به الجن . ولعل الانس لا يتخاطبون به فيما
بينهم ، والله اعلم .

من بني الشيصبان (وهم قبيلة من الجن) فكأننا يتناويان قول
الشعر -

قطوراً أقول وطوراً هنو ...

ولا مرأ في ان اجود شعر حان ما كانت يلقيه اليه تابعه
الشيصباني ، ولكن انى لنا اليوم بعلامة في الشيطانيات يميز
بعض القولين من بعض ؟

كذلك « ابو النجم »^(١) . فان سألتني : من ابو النجم هذا ؟
اجبتك لا ادري - سوى انه الرجاز القائل مفتخرأ :

اني وكل شاعر من البشر
شيطانه انشئ وشيطاني ذكر

وهذا بيت من الشعر اهدبه الى القائلين بعدم المساواة بين
الرجل والمرأة في مجتمعنا الانسي ، فانها على ما يظهر ، ليسا
بتساويين ايضاً في عالم الجن . ولكن لا ننس ان في شعرائنا من
يؤثر ان يكون شيطانه انشئ : بشاره الخوري^(٢) مثلاً الذي قال (او
قوله شيطانه) طائفة من احسن الشعر في المرأة والحب وما الى

(١) ابو النجم الفضل بن قدامة شاعر رجاز ، في عصر بني امية ، توفي سنة
٧٤٧ م (١٣٠ هـ)

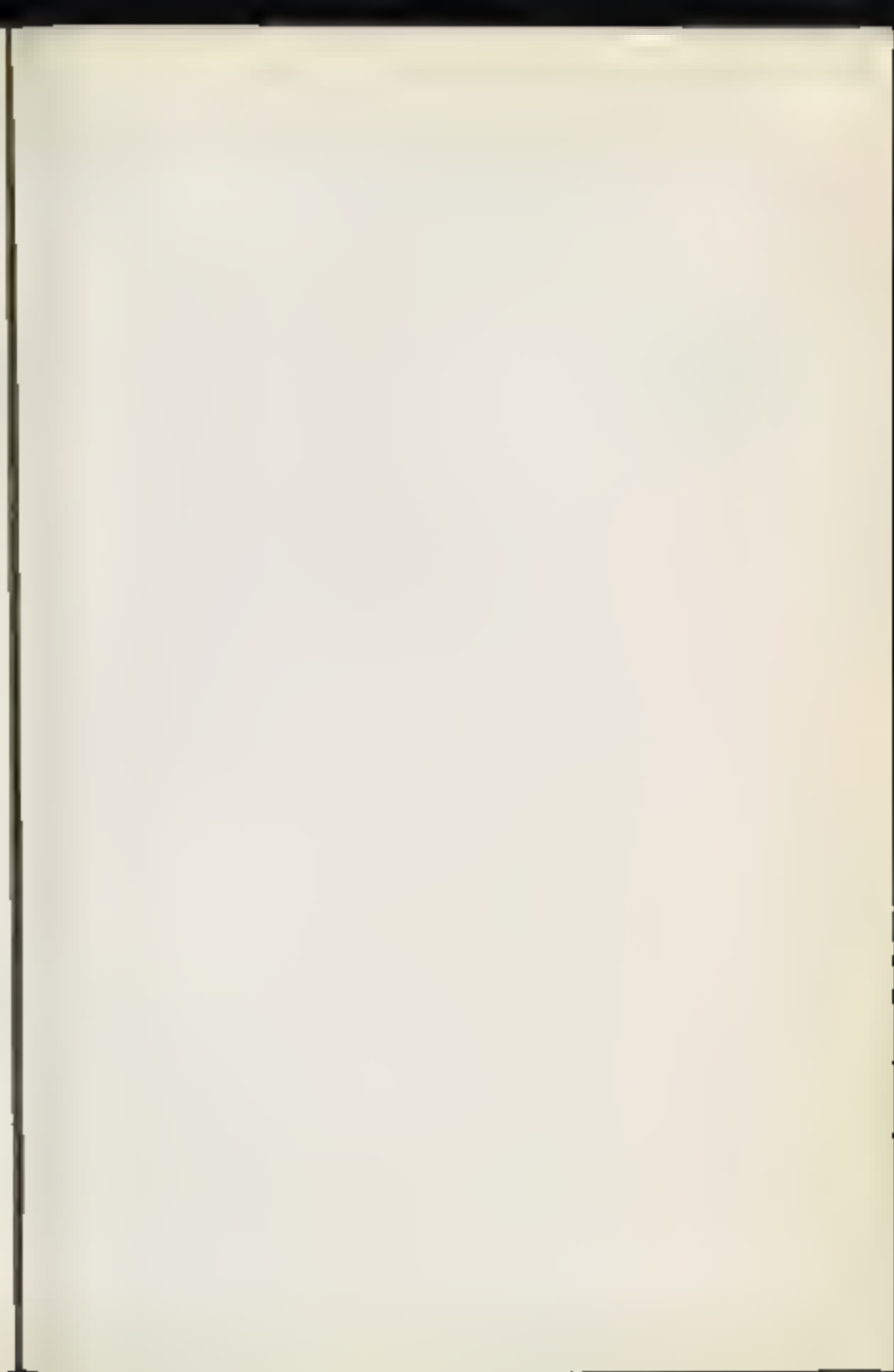
(٢) بشاره الخوري : لبناني من اكبر شعراء العربية في العصر الحديث يلقب
« بالاحطل الصغير » . ظهر له ديوان « الهوى والشباب » مشتملاً على قسم
شعر .

ذلك^(١). والمسألة مسألة مزاج أيضاً : هذا شاعر يلقي اليه -
واحد ، وما أكثر الذين يسمون بالشعراء وهم في الحقيقة
طواحين الفاظ ! قل في هذا البلد السعيد من ليس يقول الشعر
الا لأن شيطانه يعزبه بقوله ، فإذا لم يتل كان وقرأ على صدره ،
او احسن بمثل ديبب النمل في سويداء قلبه .

- ألك ايها الشاعر شيطان ؟ اذن فقل ثم قل ! والا فانقلب
طاحوناً على ضفاف العاصي ...

دعوة مستجابة ، في ليلة القدر ، التي هي خير من الف شهراً

(١) اما شعره السياسي فانه غلبت صفات الكثرة في شيطانه (لعمرك فخورى)



نظر رسول الله الى زفير به ابي سلمى
فقال : اللهم ، أعزني من شيطانك ...

وليس في شياطين الشعراء أعظم شأماً من «مسحل بن اثالة»
هاجس الاعشى^(١) صناجة العرب الذي كان - على رأي بعض
نقدة الشعر - أغزل الناس في بيت ، واشجعهم في بيت ،
واختشم في بيت .

ولقد اجتمع الشاعر وشيطانه ذات يوم ، وجهماً لوجه ،
فتحدثا كما يتحدث الرجل الى خياله في المرأة .

قال الشيطان ولم يعرف الاعشى بنفسه : من انت ، وابن
تقصده ؟

(١) الاعشى ميمون بن قيس . شاعر جاهلي . من اسعاب المعلقات العشر ،
عرف بصناجة العرب لحسن النغم في شعره . ولأنه كان يقضي شعره ،

قال الشاعر : انا الاعشى ، اقصد قيس بن مديكرب .
— حياك الله ! اظنك امتدحتك بشعر ، فأنشدته .

فأنشد الاعشى مطلع القصيدة :

رحلت حمية ، غدوة ، اجماليا
غضباً عليك ، فما تقول بدا لها ؟
قال الشيطان : حبيبك ! أهذه القصيدة لك ؟
نعم .

من « حمية » التي ثلب بها ؟
— لا اعرفها ، وانما هو اسم ألقي في روعي .
فنادى الشيطان : يا حمية ، اخرجي ! فاذا جارية خاسية
خرجت ، فقالت : ما تريد يا أبت ؟
— انشدي عمك قصيدتي التي مدحت بها قيس بن مديكرب
ونسبت لك في اولها .

فاذا فعت تشدد القصيدة حتى آتت على آخرها ، لم تخرم
منها حرفاً ، ثم انصرفت . فقال الشيطان للشاعر :
هل قلت شيئاً غير ذلك ؟
نعم . قلت اهيجي يزيد بن مسهر :

ودع هريرة ، ان الركيب مرتحل
وهل تطيق وداعاً ، ايها الرجل ؟

— حسبك ! من « هريرة » هذه التي نسبت بها ؟

— لا اعرفها ، ومبيلها سبيل التي قبلها .

فتنادي الشيطان : يا هريرة ! فاذا جارية قريبة السن من الاولى . فقال لها : اتشدي عمك قصيدي التي هجوت بها يزيد بن مسهر .

فانشدتها من اولها الى آخرها ، لم تخوم منها حرفاً .

ويقول الاعشى ، وهو راوي هذا الحديث الذي تجده في كتاب « الاغانى »^(١) بسنده المتصل : فسقط في يدي وتحيرت وقشيتني رعدة . ولكن الشيطان رثى لحاله ، فقال له وهو يضحك :

— ليفرخ روعك يا ابا بصير ! انا هاجبك مسعل بن اناثة الذي ألقى على لسانك الشعر .

وفي شعرائنا نفر لا يفتأون « بنفخوننا » باحاديث مكذوبة عن « سميات » و « هريرات » لم يعرفوهن قط ، لعل بسيطة هي انهن لم يوجدن الا في الغزل العربي الذي يقلدونه تقليد القردة .

وما جزاء هؤلاء الشعراء — اصطلاحاً ، او كما يسمون

(١) الاغانى كتاب في واحد وعشرين جزءاً ، لابي الفرج الاصفهاني . كاتب من ائمة الادب العربي ، عاش في القرن الرابع للهجرة (العاشر للميلاد)

انفسهم - الا ان يقفوا ، في حضرة وارد من الجن كمسجل ابن
 ائمة ، وقفة المتحّن الذي « لم يحفظ درسه » . قلن يقولوا له
 حينئذ : « ان شيطاننا القى في روعنا هذا الاسم او ذاك ، فهو
 يعلم من ممية وهريرة وهند ودعد وهي وهنجرا .. » يقينا ،
 لن يقولوا له ذلك ، ومن ادري من مسجل : بانه ليس لهؤلاء
 شيطان ؟ والمألة مسألة مزاج ، فان الجن ما زالوا يظهرن او
 يعزفون وإن لم يكتب لعامة الناس ان يروهم او يسمعوا عزيفهم ،
 كما ان عبقر^(١) لم يذهب به زلزال ولكن ليس بعبقري من اراد
 او من ادعى العبقرية .

ومن اعترف من شعراء العرب بان شيطاناً كان يلقي الشعر
 على لسانه جرير^(٢) القائل :

اني ليلقي عليّ الشعر مكتهل
 من الشياطين

ففسد جرير ، بمون شيطانه * على مهاجاة ماية شاعر

(١) عبقر موضح يكثر فيه الجن ، ثم نسب العرب اليه كل شيء تعجبوا
 من قوته وحسنه . ومعنى لفظة Genie في اصلها اللاتيني « الشيطان
 الموائي او المفضل » فاذا هي ولفظة « عبقري » العربية اصلا راصطلاحاً ،
 اختان . (التطبيق لعمر فاخوري) .

(٢) جرير (٦١٠ - ٨٢٧ م) (٢٨ - ٨١١٠) ، احدى شعراء المثلث
 الاموي . اشتهر بشدة الهجاء ورقة القزل .

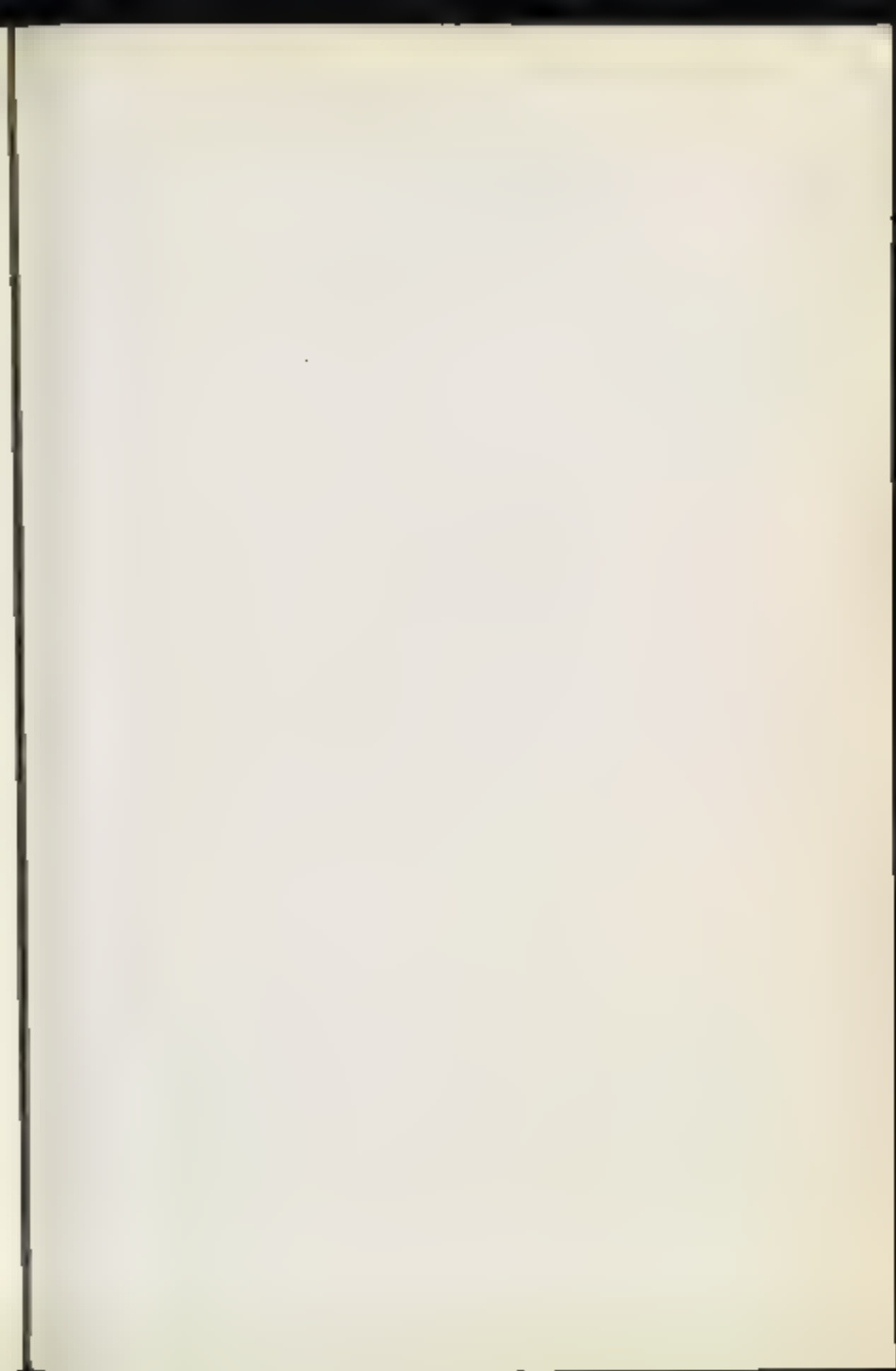
وشاعر ، أسكتهم واخزاهم جميعاً . وكذلك الفرزدق^(١) ، اقر
بانه كان يستقيث بشيطانه كلها اعياء قول الشعر ، فاذا اغاثه
قال واجاد .

اما « السنقاق » فهو شيطان بشار بن برد الأعمى^(٢) . وهنا
مسألة : كيف كان السنقاق يظهر لبشار ؟ الجواب - ان كان
لكل مسألة جواب - هو ان عيني الأعمى ، لا سبأ اذا كانت
بشاراً ، تكونان مفتوحتين على باطنه ، فكان بشار يرى
شيطانه في نفسه .

ولم يختص بالجن الشعراء وحدهم ، بل كانت للفننين منهم
نصيب . وهذا « زرياب » إمامهم في الأندلس ، الذي زاد في
أوتار العود وترّاً خامساً ، اختراعاً منه . يقول ان الجن كانت
تعلمه . ولعل الوتر الخامس مما آتاه شيطانه ليزيد في سحر الفن .
وهذا مصداق ما يذهب اليه بعضهم من ان الفنون الجميلة ،
وخاصة الشعر والموسيقى ، هي من صنع ابليس وكيدته ، ان
كيدته اعظم !

(١) الفرزدق احد شعراء الثالث الاموي . استمر الهجاء بينه وبين جرير ،
فتفوق على جرير بالفخر .

(٢) بشار بن برد (٧١٤ - ٧٨٤ م) (٩٥ - ١٦٧ هـ) من كبار شعراء
العربية في اواخر العصر الاموي واولئ العباسي . كان قاتحة طبقة
المسجدين . اشتهر فنون من الشعر : الهجاء الفزل ، الوصف ، الشعر
السياسي .



لم ينفرد العرب بمعرفة هذه الارواح الخيرة التي تعين الخلق على احتمال آلام الحياة ودواعي السأم فيها ، بما توحى الي هؤلاء الميامين الذين نسميهم بالموسيقين والشعراء وارباب الفنون . فقد كانت للاغريق القدماء إله يدعى «ابوللون» هو إله الموسيقى والرقص والشعر والالهام ، يعنو لعزته وجلاله شاعرهم ونبيلهم على السواء ، إذ كان يكشف للنبي عن المغيبات ويحري على لسان الشاعر اغاني الحماسة . وكان موطن ابوللون على الاصح ، جبل «البرانس» المكسوة جنباته بالفاشات والرباض ، الريانة موجه بماء الينبوع الاقدس .

هنالك كانت ربات الوحي Moses يحققن بالإله العظيم ، عازفات على الاوتار ، منشدات ، مسبحات بحمد الآلهة . وكانت صواحب ابوللون قسماً ، منهن «اوترب» ربة الشعر الفنائي ، و «كاليوب» الموحية الى الشعراء بأساطير الاولين . فهل تعجب

من ان الاغريق في العصور الخالية سمّوا الى سماء الفن والشعر ،
وهؤلاء الالهات والالهة جميعاً في عون فنانينهم وشعرائهم ؟



ذكر لي الامتاذ الريحاني ان العرب في «عير» الأعلى
يقولون اليوم عن الشاعر : «هو رجل سقته الجن» وانه سأل
احدهم كيف يكون ذلك ؟ فأجابه ان الشاعر إذا اراد نظم
قصيدة ، يصعد الى قمة جبل هناك ومنه شاة يذبحها ويقربها
قرباناً ، ثم يضطجع في ظل شجرة ، فإذا تقبل قربانه احس في
نومه كأنه يلقى شيئاً ، فينهض ويقول الشعر... في عير الأعلى
اذن «برطاس» عربي تسمع فيه الجنيات الحسان اللواتي يرضعن
الشعراء من لبنن الزلال ، فتعذب السنتهم...



يروي ان الإله الاغريقي «ديونيزوس» كان يأتي الشاعر
«أشيل» في مدامه فيملي عليه قصصه التراجيدية ، فإذا لم تصدق
بهذا ، فهل تكذب أيضاً سقراط^(١) الذي أقر ، وهو الحكيم ،
بأن له شيطاناً ؟

(١) سقراط . فيلسوف اخلاقي من فلاسفة الاغريق (٤٧٠ - ٣٩٩ ق.م).
حكم عليه قضاة أثينا بشرب السم . لاثامهم إياه . بإفساد الشبيبة .
يعتبر من كبار ضحايا حق التفكير المستقل في التاريخ .

والشاعر الإيطالي «تاسو»^(١) كان يزوره في لياني الارق روح عيب ، فيعطف على وسادته ويحاذيه اطراف الحديث . ويقول «فوريس» من معاصري شكسبير^(٢) ان الشعر كان في اسرة الشاعر الانكليزي الاشر ، وانه كان يتعاطى قنونه التي تلقاها عن اهل فالجيد الذي في قصصه التمثيلية هو من وحي شيطانه .

اما الشاعر الفرنسي «بوالو»^(٣) القائل في قصيدة هجاء باللاتيني الحديث : «شيطان الشعر ا كيف تأمرني ، وأنا الغريب المتبت ، المولود وراء الالب ، ان اعسف النظم اللاتيني لا انفك انخبط في معاميه ؟» فهو صاحب ارجوزة في صناعة الشعر ، فيها من الشعر بقدر ما في «الفية ابن مالك»^(٤) . ولهذا نقول انه يكذب في زعمه ان شيطان الشعر امره بشيء ، الا ان يكون امره بان يسكت ، رحمة بالناس .

اني لا كاد اسمع القاري يقاطعني وهو يتنسم ، غير مصدق

(١) نور كواتاسو (١٥٤٤ - ١٥٩٥ م) . شاعر ايطالي اشتهر بقصيدته المطولة : « اورشليم المنقذة » .

(٢) وليم شكسبير (١٥٦٤ - ١٦١٦ م) شاعر انكليزي ومؤلف مسرحي عالمي : اشتهر بطائفة من المآسي والملاحم والدرامات . والقصائد الفناقية .

(٣) بوالو (١٦٣٦ - ١٧١١ م) شاعر فرنسي تعليمي ونقادة اشتهر بأثره : « الفن الشعري » .

(٤) محمد بن مالك (١٢٠٣ - ١٢٧٣ م) (٦٠٠ - ٦٧٢ هـ) من علماء العربية ، اشتهر بارجوزة في قواعد اللغة سماها « الفية » .

شيئاً من هذا الحديث ، بقوله :

— وبعد ؟ أكثر ما شئت من الشواهد النقلية ، وعزز ما وجدت الى ذلك سبيلاً ، اقوال العرب باقوال الافرنج ... فلن اؤمن قط بأن الشاعر يوحى اليه إله من آلهة البرناس ، او يلقي على لسانه الشعر شيطان من شياطين الفلوات . بل ايش تلك الآلهة الاغريقية وايش هذه الشياطين العربية ؟

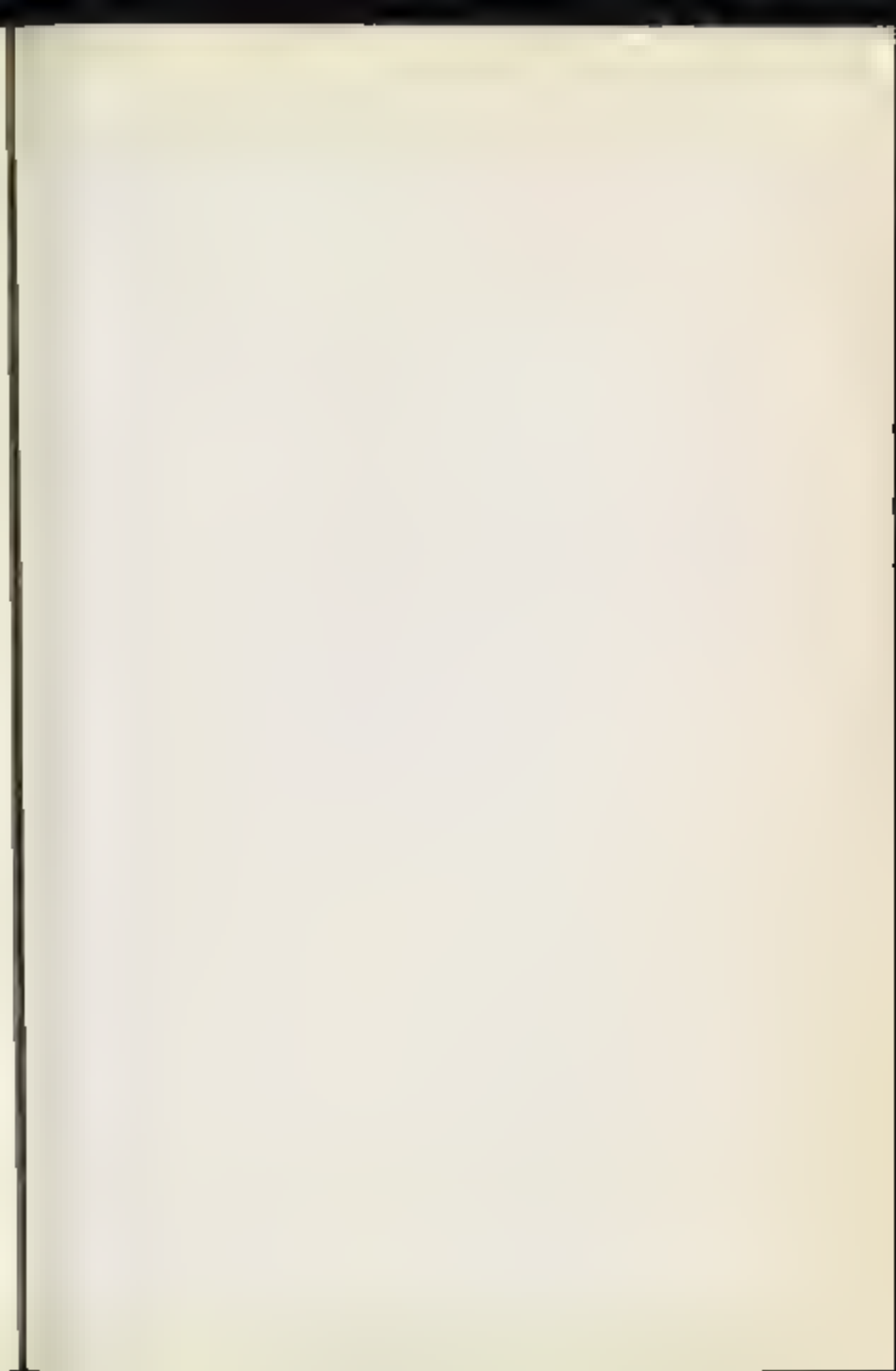
فأنا اجيب بقولي : عفواً يا سيدي القاريء .. اما اذا اردتني على طرح هذه الاقوال والشواهد جميعاً ، بقين ، انها صرف كذب ومحض اختلاق أو ضرب من الهذيان لا يقوم على اساس ، فلا . وأما إذا اعتبرتها «واقعة» لا بسعنا انكاره على الصورة القطعية ، بل يلغني النظر فيه وتأويله علياً اذا امكن ، لأن الهذيان نفسه «حقيقة» تقوم على اساس ويستطاع تأويله علياً ، فأنا معك . ولكن هذا بحث تضيق به مقالة اليوم وسأعقد له مقالة اخيرة تكون ختام الكلام في الشعر وشياطينه . وأحب ، قبل ذلك ، ان انقل اليك نادرة طريفة من نادر الميثولوجيا العربية ، على رجاء ان تجد فيها لذة وفائدة :

نشأ بسجستان في اواخر القرن الثاني للهجرة رجل يدعى سهل بن ابي غالب الخزرجي ويلقب بأبي السري ، ادعى رضاع الجن (مثل شاعر جبل عسير الاعلى) وان صلته بهم بحكمة . ثم وضع كتاباً ذكر فيه كثيراً من اخبارهم ووقائعهم وحكماتهم

وانسابهم واشعارهم ، وزعم انه بايعهم للأمين بن هرون الرشيد
بولاية العهد ، فقربه الرشيد وزبيدة وابنها الامين ، واجازوه
جوائز سنوية . ثم اخذ ينقل اليهم ، حيناً بعد حين ، شعراً جيداً
من نظم الجن والشياطين والسحالي ..

- وهل صدق الرشيد هذه الخرافة ؟

- ان الرشيد لم يصدق ولم يكذب ، بل قال له : « ان كنت
رأيت ما ذكرت فقد رأيت عجباً » ، وان كنت ما رأيته فقد
وضعت ادباً . ولست اسأل القاريء الآن ، الا ان يقول بقول
الخليفة العباسي ، فهو حسي .



يقول أبو اسحق^(١) المتكلم من اصحاب الجاحظ ما خلاصته :
 وإذا استوحش الإنسان مثل له الشيء الصغير في صورة الكبير ،
 وارتاب وفرق ذهنه ، فيرى ما لا يرى ويسمع ما لا يسمع ..
 فإذا توسط الفيا في واشتملت عليه الغبطان في الليالي الحنادس ،
 تجده عند اول وحشة او قزعة وعند صياح بوم ومجاوبة صدى ،
 وقد رأى كل باطل وتوهم كل زور .. على هذه الصورة يشرح
 الاعتقاد بالكائنات الخارقة ، كالجن والشياطين والسماوي التي
 آمن العرب بها وآمن بثُلها اقوام آخرون . ولعل ابا اسحق لم
 يجد في شرحه هذا مقبلاً ، فلم يلبث أن زاد عليه قوله : وربما
 كان في الاصل كذاباً صاحب تشنيع وتهويل ، فيقول في ذلك
 من الشعر على حسب هذه الصفة : رأيت الفيلان وكلمت السحلاة .

(١) ابراهيم بن سيار النظام (٨٠٦ - ٨٣٦ م) (١٨٥ - ٨٢٢)
 احد أئمة المعتزلة ورائد الجاحظ .

ثم يتجاوزهم الى ان يقول : رافقتها ، ثم يقول : تزوجتها .. ،
وهكذا ، اي انه - رغم اجادته في تصوير الظرف المادي الذي
قد يكون له بعض الاثر في تلك الظاهرة البيكولوجية - انتهى
بشرح احدى العقائد العامة التي عاش عليها البشر وما زالوا ،
او هن شرح بأهون حجة ، نفى حجة الكذب ، فهو إذئ لم
يشرح شيئاً . وليس يسر على المرء الذي يحدث حديثاً لا
يفهمه ولا يجد تأويله من ان يحبه عدته بهذه الكلمة الموجزة التي
تفني عن كل تطويل وتدفع كل م : انك لكاذب !

ولا يلتبس الأمر على القاريء ! فلست بالناعي على ابي اسحق
انكاره الجن والشياطين وسواها ، كما اني لم ارم الى اثبات ان
لهذه المعجائب وجوداً حقيقياً فعلياً مستقلاً عن الاناسي الذين
رأوها او دتوهموها . ولكني اسأل نفسي ، اذ لم اجد مقنعاً في
ذلك «التكذيب» : كيف يري الانسان (كما يقول هو) ما لا
يرى ، ويسمع ما لا يسمع ؟ أليس هذا امرأ عجبياً جذيراً بأن
نعرف تأويله ؟ هل للعلم الحديث كلمة يقوفا ، في هذا الباب ،
غير كلمة «كذب» ؟ . فأما وقد ذكرت «العلم الحديث» فأني
اعتذر الى ابي اسحق المتكلم الذي عاش في القرن الثالث للهجرة ،
عن مطالبته بما لم يُعلم الا بعد الف سنة . وحسبه انه طرح ، في
صورة الجواب ، ذلك السؤال ..

*

كان القدماء من الاغريق والرومان يقولون ان للشاعر المهيم
بصراً يتغذ الى ما وراء العالم المادي الظاهر - الى عالم الغيب .
وكان الشاعر يُسمى باللاتينية *Vates* ومعناه « النبي » . ولقد
عكس العرب القضية اذ وصفوا النبي محمداً « ص » بأنه شاعر
وقالوا : « أننا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون ! » فأنكر النبي انه
شاعر : « وما علمناه الشعر وما ينبغي له » ، إن هو الا ذكر
وقرآن مبین ، « وتحدى العرب بسورة منه ، بكل بآية من
سورة . وروى انه كان إذا مثل بيتاً من الشعر لا يقيم وزنه بل
يكسره ويتمثل البيت معكوراً .. مبالغة في دفع التهمة .
ويقول الجاحظ في هذا المعنى : « سمى الله كتابه اسماً خائفاً لما
سمى العرب كلامهم ، على الجملة والتفصيل : سمى جلته قرآناً كما
سموا ديواناً ، وبعضه سورة كقصيدة ، وبعضها آية كالبيت ،
وآخرها فاصلة كغافية . » أرى الجاحظ يشير في عبارته هذه
الى امر ما - الى الاعتذار للعرب عن خلطهم بين الشعر الذي
يعرفونه وهذه الآي المنزلة ، دون أن يؤخذوا باختلاف الاسماء ؟
ليس ذلك على خبثه بعزيز . ولكن رأيي هو انهم بزعمهم ان
القرآن شعر والنبي شاعر ، تجاوزوا الصور والمباني - أي
السورة والقصيدة ، والآية والبيت ، والفاصلة والقافية - الى
الجوهر ، جوهر الشعر ، على نحو ما فعل الرومان القدماء اذ
سموا شاعرهم نبياً يوحى اليه .

*

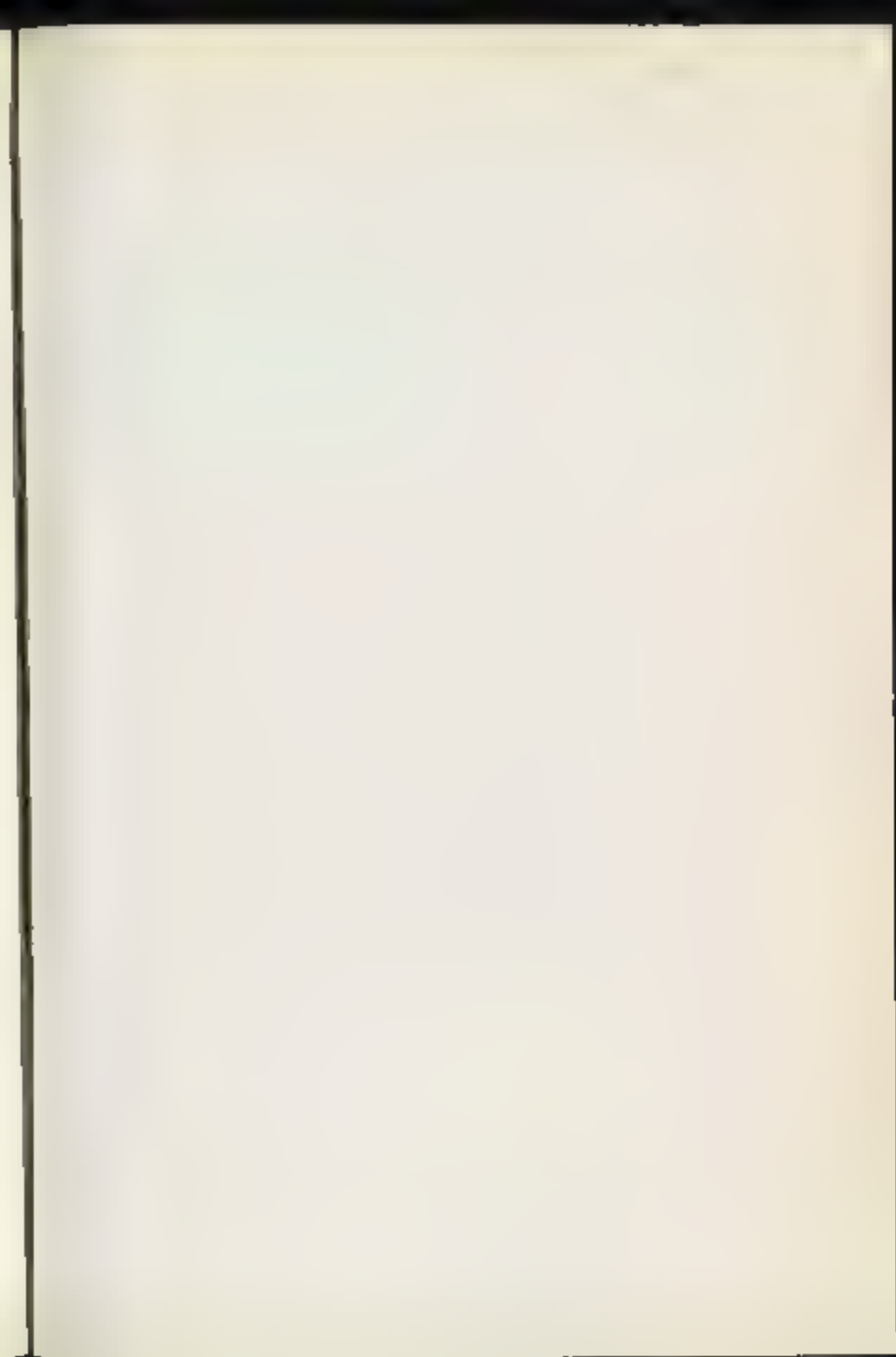
سموا الشاعر الملهم نبيا، اعتقاد أنه ليس بشراً مثلهم بل هو بشر وزيادة .. وهذه الزيادة إنما تأتيه من الشيطان العربي الذي يلقي الشعر على لسانه ، أو من «الموز» اليونانية التي توحى إليه .
 أو من الإله الروماني الذي ينزل الآيات عليه تنزيلاً . وهذه الزيادة هي أنه يرى ما لا يرى ويسمع ما لا يسمع ، كما قال أبو اسحق المتكلم . ولا يندر في الشعراء والفنانين - الفاعول المبقرين - من يعتقد مثل هذا الاعتقاد . فإن الشاعر المبقر الذي يبهر عامة الناس ببديع معناه ويحرمهم برائع قوله حتى يسمعوا كالأصوات الهابط من الملكوت الأعلى ، يكبر هو أيضاً هذا الأعجاز ويذهب من أنه هو مستودعه ومظهره ويتساءل : شذوها ؟ من أين ، من هذه الأمانة العظيمة ؟ ذلك أن العبقريّة شذوّذ ، شذوّذ بلا مرأى ، لكنه أدى بعضهم إلى اعتبارها مرضاً أو عاهة في الجهاز العصبي ، ويذهب «لومبروزو»^(١) إلى أنها صورة ملطفة من داء الصرع ، تصحبها نوبات مفاجئة عنيفة ، يلقبها خور جسماني شديد .

أجل ، أن كثيراً من العلماء يردون اليوم هذا الرأي قائلين أن أغلب العبقريين المرضى كانوا أولي عبقريّة رغم الأمراض التي أصابوا بها ، لا يسبب تلك الأمراض ، سواء أكانت عصبية أم

(١) سيزار لومبروزو (١٨٣٦ - ١٩٠٩) عالم جراثيمي من علماء الطليان .
 من رأيه أن الجرم افقودج شاس من البشر ، وأن العبقري انسان
 « منحل » وثيق الصلة بالجنون

غير ذلك ، فالمرض في الرجل المبقرى ليس قاعدة عامة بل حالة استثنائية. ولكن هؤلاء العلماء ، على كل ، ليسوا بإنكرين ان العبقرية يحد ذاتها ، سواء الصحيحة والعليلة ، شذوذ كما سبق القول ، شذوذ يراه صاحبه في نفسه وبراء فيه عامة الناس ، فيشدهم ويهزمهم ، ثم تعيهم الحيلة ولا يجدون ذأوبله ، فيحبوناه على عالم غير عالمنا الظاهر ويعزونه الى قوى غير قواه المعروفة : الجن وموحية الشعر والإله ، وهي رموز منظر قيا وراهاه أو اسماء لعلمنا نوفق الى معرفة مسمياتها .

*



ابو عامر بن شهيد من عيون ادياء الأندلس وشعرائها عاش في القرنين الرابع والخامس للهجرة . له رسالة اسمها «التوابع والزوابع» كثيرة الشبه برسالة «الففران» للمعري ، يقول في أولها ان شيطانه زهير بن غنيم زاره يوماً فتذاكر معه اخبار الخطباء والشعراء مع التوابع والزوابع^(١) وأظهر رغبة في لقائهم والتحدث اليهم . فاركبه الجنى متن جواد آدم ، سار بنا - كما يقول - كالطير يختاب الجو فالجو ، ويقطع الدور^(٢) فالدور حتى لحقت أرضاً لا كأرضنا ، وشارفت جواً لا كبجونا . . فقال لي زهير : حللت أرض الجن ، أيا عامراً .

وهناك في أرض الجن ، ثم يجتمع الأدب الأندلسي بخطباء العرب وشعرائهم (وفي هذا احد الفروق بين رسالته ورسالة ابي

(١) تقدم ان العرب كانوا يسمون شيطان الشاعر : الرقي والتابع . فكذلك الزبومة هو الشيطان او رئيس الجن . (التعليق لممر فاخوري)
(٢) الدور : البرية والقفار .

العلاء) بل ياصحابهم الذين كانوا يلقون رائع الشعر ويديع القول على لسانهم ، من شيطان امرئ القيس الى شيطان ابي نواس^(١) ، كأن هؤلاء الشعراء ليسوا شيئاً مذكوراً ، لكنهم ظلال اولئك التوابيع والزوابع في عالم الغيب - ظلال تلقى على عالمنا هذا : الشاعر هو ظل شيطانه على الأرض .

لم نذكر ابن شهيد لناقي على ذكر رسائله الممتعة عن شياطين الشعراء ثم نقف عند حد التنويه بأسلوبه الطريف . كلا ، فإن له فيها عدا ذلك رأياً في الأدب قبيحاً ، فإصلاً بما نحن في صدده . يقول من كلام له على الطبع والشعراء المطبوعين : « ومقدار طبع الانسان انما يكون على مقدار تركيب نفسه مع جسمه »^(٢) فمن كانت نفسه من اصل تركيبه مستولية على جسمه كان مطبوعاً روحانياً ، يطلع صور الكلام والمعاني في أجمل هيئاتها . . . ومن كان جسمه مستولياً على نفسه من اصل تركيبه والغالب عليه جسمه ، كان ما يطلع في تلك الصور ناقصاً عن الدرجة الأولى في التمام والكمال وحسن الرونق . فمن كانت نفسه المستولية على جسمه فقد تأتى منه في حسن النظام صور رائعة من الكلام غلاً القلوب وتشغف النفوس . فإذا فلتت لحسنها أصلاً لم تجده ،

(١) ابو نواس الحسن بن هاشم (٧٦٣ - ٨١٤ م) (١٤٦ - ٨١٩ هـ) شاعر عباسي ، اشتهر بإخراج الشعر العربي من جوه البديع الى الحضري . وابتدع في المهر .

(٢) ألم نقل أكثر من مرة ان المسألة مسألة مزاج ؟ (التعليل لعمر فاخوري)

ولجمال تركيبها وجهاً لم تعرفه * وهذا هو الغريب : ان يتوكل
الحسن من غير الحسن ، كقول امرئ القيس :

تنورتها من اذرعاء * واهلها
بيئرب ، أدنى دارها نظراً عالاً

فهذه الديباجة اذا تطلبت لها اصلاً من غريب معنى لم تجده ،
ولكن لها من التعلق بالنفس والاستيلاء على القلب ما ترى .

ويقول الدكتور أحمد ضيف ^(١) في كتابه « بلاغة العرب في
الاندلس » : « وهو - اي ابن شهيد - يميل الى ان الاقتنان في
الكلام او البراعة في النظم والنثر أو ما يسمونه بالبلاغة ، نوع
من الالهام أو شيء من الغيبات أو سر من أسرار النفوس . . »

سر من أسرار النفوس ! فما هو هذا السر الذي سماه
الاولون : الشيطان و الموزة Musa والإله ؟ أو ما هي حقيقة
الوحي والالهام في الابداع الفني والشعري ، والجواب - على
المسألتين واحد ؟

يقول الكاتب الفرنسي بول بورجه ^(٢) : « ان النفس الإنسانية

(١) أحمد ضيف : اديب مصري معاصر .

(٢) بول بورجه : روائي فرنسي . ونفاذة في القرن التاسع عشر والعشرين ،
اشتهر بالروايات التي نحا فيها مشعى التحليل النفسي على طريقته .

لكالآرخبيل الذي تبرز جزره على سطح البحر ، وما الجزر الا ذروات بادية للعيان من اساس غير ظاهرة ، بل من جبال تغمرها الامواج . فكذلك تقوم افكارنا وعواطفنا واراداتنا على بناء سيكولوجي عظيم خفيت اساسه عنا وعن سوانا . وهذا البناء الخفي أو الباطن هو ما يسمى في السيكولوجيا الحديثة باللاوجداني Inconscient ومن اعماقه يصعد الوحي الخفي والالهام الشعري اللذان لا شيطان ، كما ترى وكما هو الشائع ، من عليين . والاعتقاد بأن للشاعر شيطاناً يلقي الشعر على لسانه لا (موزأ) من بنات الآلهة توحيه اليه ، أقرب الى هذا الرأي العالمي ، لأن الشياطين ، كما هو معروف ، هي من العوالم السفلية .

فكل فاعلية فنية أو شعرية عظيمة - في الفنانين والشعراء العبقرين على الأخص - لها جذور تستشري فيما وراء الادراك أي في المنطقة اللاوجدانية من النفس الإنسانية . ومن هذا اللاوجداني مادة الابداع في الفن والشعر ، وفيه تأويل ما كان القدماء لا يعرفون تأويله من حالات الوجد والكشف ، والوحي والالهام ، غير مزون عنه بالموز والإله والشيطان . ولذلك كان كثير من الفنانين يتوسلون لإيجاد تلك الحالات في أنفسهم ، بضروب من المهيجات : كقهوة فلتير وبلزاك^(١) ، وكحول

(١) بلزاك (١٧٩٩ - ١٨٥٠) : روائي فرنسي عالمي ، اشتهر بسلسلة رواياته « الملهاة البشرية » .

بور^(١) وهوفمان^(٢) وموسه^(٣) وكوكاين موبسان^(٤) ، وغيرهم ، وهي مبهجات لما في اعماق اللاوجداني من العناصر الكامنة التي تثور حينئذ وتطفو على سطح الوجدان ، فتتألف منها آيات الفن والشعر - كما تبدو احياناً في عرض البحر ، بين بكرة وضعاءها ، جزيرات لم يرها الرحالون من قبل ، ولكنها برزت فجأة بفعل النشاط الخفي العظيم في بطن الارض ، فهم ينظرون اليها مشدوهين ولا يكادون يصدقون .

وليس يعني هذا ان العبقرية = لاستمدادها من اللاوجداني وهي المنطقة التي لا سلطان للادراك عليها ، تكون فوضى بلا نظام . اجل انها تصعد من تلك الاعماق البعيدة شليطاً من شق العناصر ، الا انها لا تلبث ان تدخلها في الوجداني وهي المنطقة التي يسيطر العقل عليها ، وفيها تعمل بعناء او من غير عناء ، يجهد أو من غير جهد ، على تحقيق اجل نظام وحدة في اكثر العناصر اختلافاً ، وهذه هي معجزة الميقري .

١٩٢٦

(١) ادغارو (١١٠٩ - ١٨٤٩) : شاعر كاتب اميركي اشتهر بالثرين :

« قصائد » و « قصص من عالم الغموض والخيال » .

(٢) اشتهر كثير من الالمان باسم هوفمان . ولعل المؤلف هنا يعني ارنست

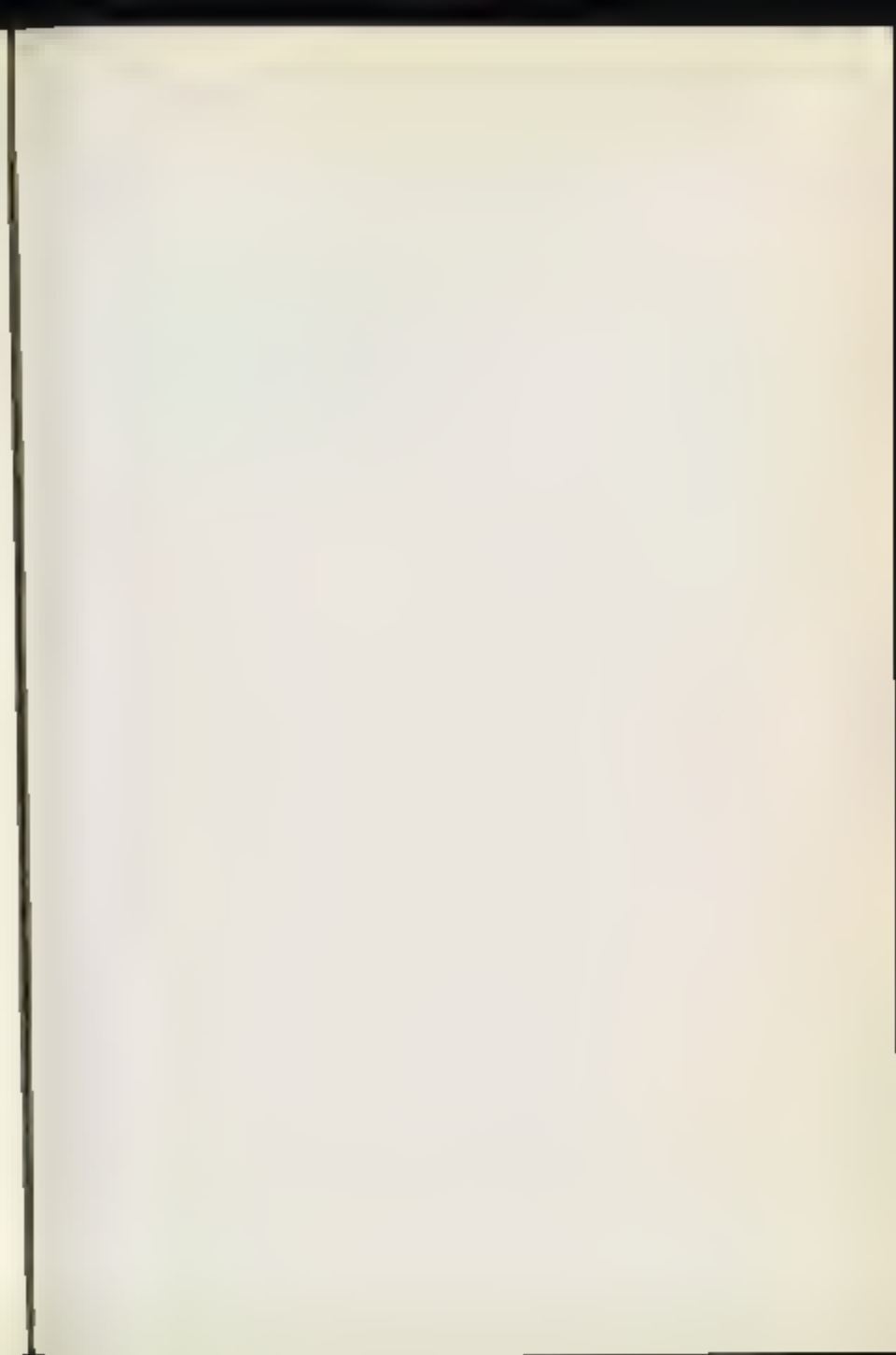
هوفمان (١٧٦٦ - ١٨٤٢ م) الروائي الموسيقي . اراعت هوفمان

(١٧٩٨ - ١٨٧٤ م) الشاعر .

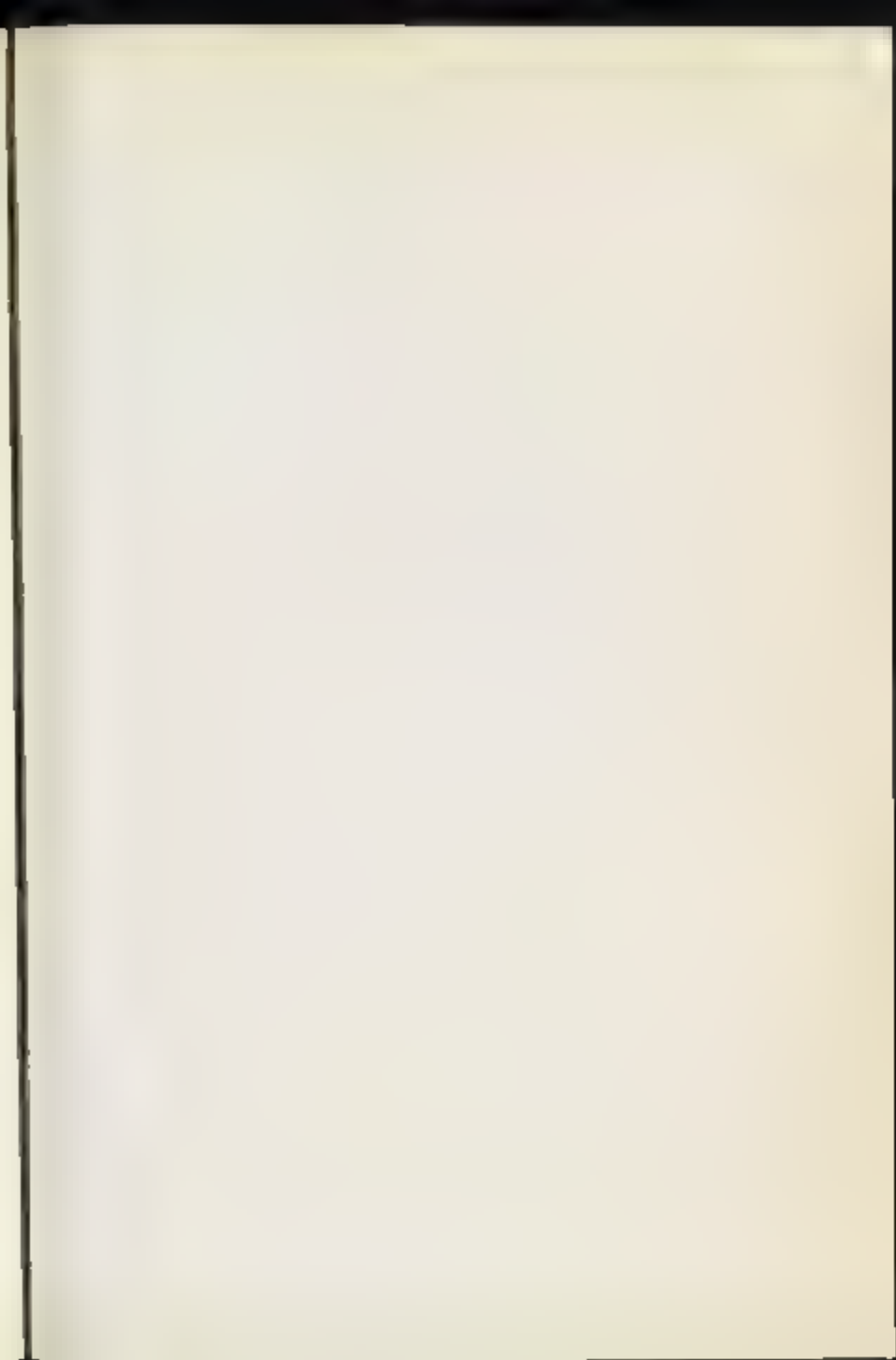
(٣) موسه (١٨١٠ - ١٨٥٧ م) : شاعر فرنسي رمظيقي مشهور .

(٤) موبسان (١٨٥٠ - ١٨٩٣) قصص - ااص فرنسي من اشهر مؤلفاته

« كتلة للشحم » .



الشاعر الشهيد



هذه كلمة صديق في صديقه .

كنا في المدرسة وبمدها ، ثلاثة أو أربعة من اللقيان لا نكاد نفرق ، وكان يجمع بيننا الصلة التي تجمع بين المسافرين أو رفاق السفر ، وكانت رحلتنا الى المستقبل ، في طريق سهل مهدته طيوف الخيال ، وكان في ذروادتنا ، كثير من الأماني والأحلام .

وكان عمر حمد أو الأربعة - خير رفيق ، يؤنسنا بشعره الذي كان لا يفتأ يقرنم به كأنه يستعش عزائمنا ، ويستفز قوانا ، حتى تصل الى الغاية التي كنا نتخيلها تخيلا ، بل نتوهمها . . . وها قد تصرمت الاعوام ولم يذته واحد منا حيث كان يرجو ، ما أطول الشقة . . . لقد انتقلنا من عالم الخيال الى الحقيقة .

اعدت ذات يوم ذكرى ذلك العهد البعيد القريب ، ذكرى الصبي ، فقلت ان احد اصدقائنا ، لما سئل : ماذا يطمع ان يكون في المستقبل ؟ - أجاب : الخليفة ! وكان عمر حمد يرجو

أن يكون شاعر الخليفة . أما والخليفة ، فقد استيقظ من هذا الحلم كما استيقظ من مثل الصياد ، أحد أبطال «الف ليلة وليلة» . وأما «شاعر الخليفة» فقد نام ، رجا الله ، نومة لا تؤنس وحشتها طيوف الاحلام .

*

وبعد ، فهذا المختار من شعر عمر حمد نرزه الى أبناء الضاد ، احياء لذكرى الشهيد وتكريماً له . فهو ترجمان الروح التي كانت سائدة على النفس في تلك الأيام . وكان إذ يتأوه ناطمه ، يشير في نفوس السامعين حماسة لا توصف ، واعجاباً ليس له حد . ولو مد الله في عمر صاحب الديوان لأصبح من فحول شعرائنا ، فقد كان مطبوعاً على النظم ، وكان منصرفاً اليه بكلية ، وكان له كثير من المشجعين . لكن عمر حمد في حياته القصيرة ، لم يكن سوى شهاب سطع بقتة في سماء الشعر ثم هوى ، او زهرة ما قفنت عن نضرتها حتى ذوت .

*

ولد عمر حمد في بيروت حوالي سنة ١٣١١هـ .^(١) وجدته السيد حمد ، مصري الأصل هاجر الى هذه البلاد في زمن الامير بشير

(١) ١٨٩٣ م (?)

الشهائي . وكان في الثامنة من عمره إذ ختم القرآن الكريم للمرة الرابعة متتلفاً لأشيخ شاتبلا المشهور في هذا البلد . وتوفي والده السيد مصطفى حمد قبل أن يحاوز الفقيه التاسعة من عمره ، فاضطر الى ترك المدرسة ، واشتغل في السوق نحو أربع سنوات . ثم أدخل الكلية الاسلامية ، فتنلقى فيها دروسه على اختلاف أنواعها ، وأخذ ينظم الشعر ، وأكثر القصائد المجموعة في هذا الديوان هي مما لقاها الفقيه في نادي تلك الكلية المزينة . واني لأتمثل الآن عمر حمد رحمه الله ، واقفاً على المنبر ، يتغنّى بعبد العرب العايرين ويندب سوء حالهم الحاضر ، مستحثاً المزاثم ، مستفزاً الهمم ، فأعثل الحماسة متجسدة في ذلك الفتى الاسمر ، الطويل القامة ، الجمهوري الصوت .

وفي سنة ١٩١٢ م . أتم الفقيه دروسه في الكلية الاسلامية ونال شهادة «البكالوريا» فالتقى في حفلة توزيع الشهادات عامته قصيدته القصصية «المروءة والوفاء» المنشورة في هذا الديوان . لكنه لم يترك المدرسة التي أنجبتة وقضى فيها سني صباه العذبة ، فقبلته معلماً للعربية وتاريخ الاسلام في القسم الاستعدادي ، وكان في الوقت نفسه يحرر في بعض الصحف المحلية .

ثم نشبت الحرب العامة ، فحملته عاصفتها الهوجاء الى دمشق ضابطاً احتياطياً ، فمكث فيها نحو ثلاثة أشهر . وكان الطاغية جمال باشا قد بدأ بتنفيذ مشروعه الدموي الذي يرمي الى القضاء

على كل نزعة استقلالية في البلاد العربية قضاء مبرماً ، والقي القبض على نفر من أبناء الوطن الأحرار وزجهم في سجن عاليه . وكان عبد الغني العريسي^(١) والامير عارف الشهابي^(٢) وعمر حمد ، رحمهم الله ، متيقنين ان دورهم آت لا بد منه ، فقرروا من دمشق في بدء سنة ١٩١٥ مرتدين ثياب البدو ، سالكين سبل البادية العربية ، وظلوا شريدين طريدين نحو ثمانية اشهر حتى قبض الترك عليهم في مدين صالح ، اذ اوشكوا ان ينجوا بانفسهم ويبلغوا «ام القرى» مهد الثورة .

وقضى صاحب هذا الديوان في غيابة السجن نحو أربعة أشهر ، معذباً مضطهداً ، لكن نفسه الايية لم تهين ولم تهين ، ولا زال من عرفه في ذلك الجحيم السيامي يذكر جرأته وصبره ورباطة جأشه وقوة إيمانه .

وفي السادس من أيار سنة ١٩١٦ جيء بالفقيد ورفاقه الى بيروت ثم قادتهم الزبانية الى ساحة الشهداء ، فمشوا يتفوقون للعرب ولاستقلالهم ويتغنون باناشيد الحماسة . وفاضت روح المرحوم عمر حمد بين أرواح صحبه الطاهرة على اعداء المشائق ،

(١) عبد الغني العريسي . أحد الشهداء . نفذ فيه الاتراك حكم الاعدام شنقاً ببيروت سنة ١٩١٦ م (١٣٣٢ هـ) . كاتب مفكر صحفي اشترك

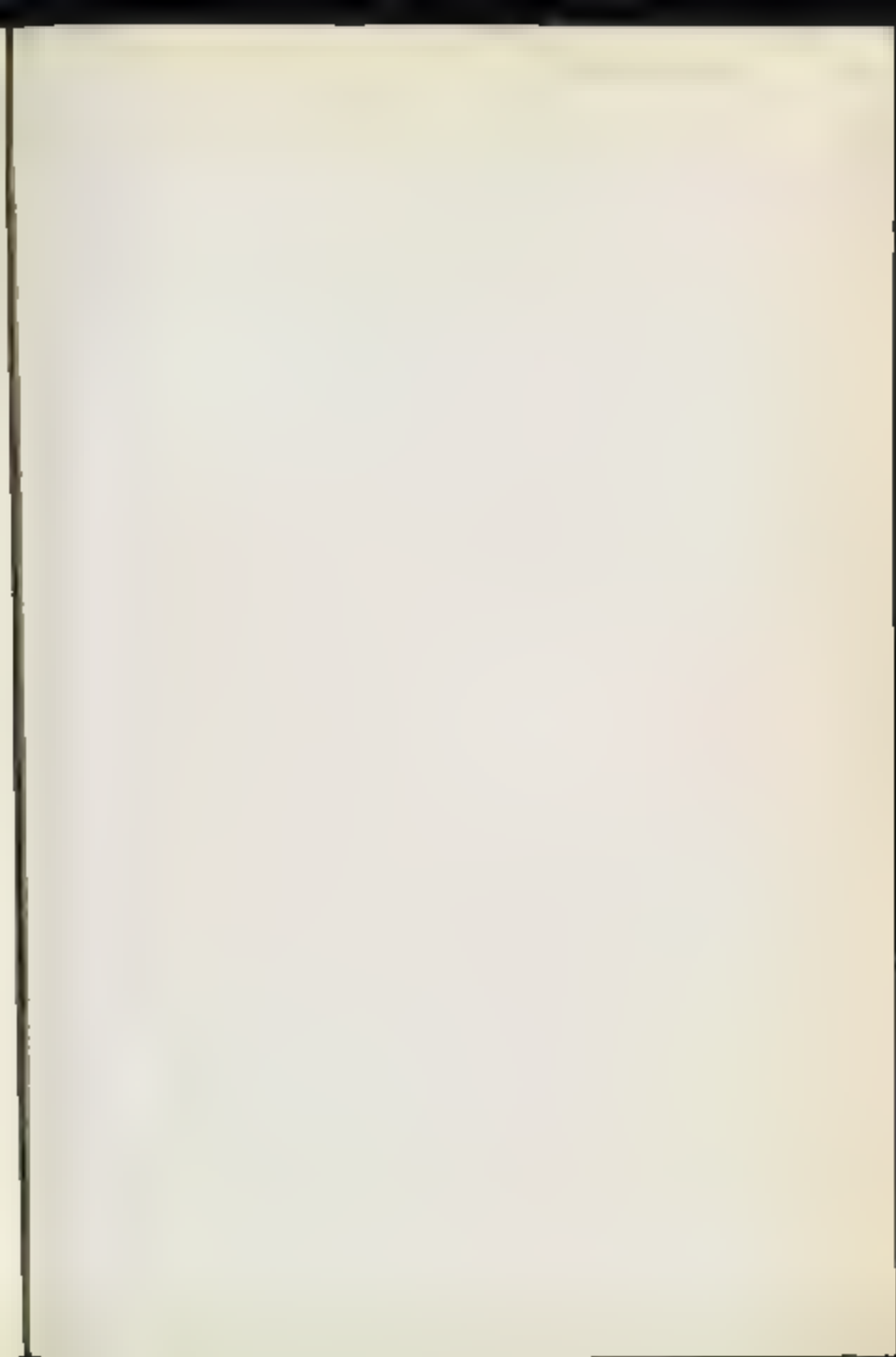
في المؤتمر العربي الاول بباريس . اكثر آثره في جريدة « المفيد »

(٢) عارف الشهابي (١٨٩٠ - ١٩١٦ م) (١٣٠٧ - ١٣٣٤ هـ)

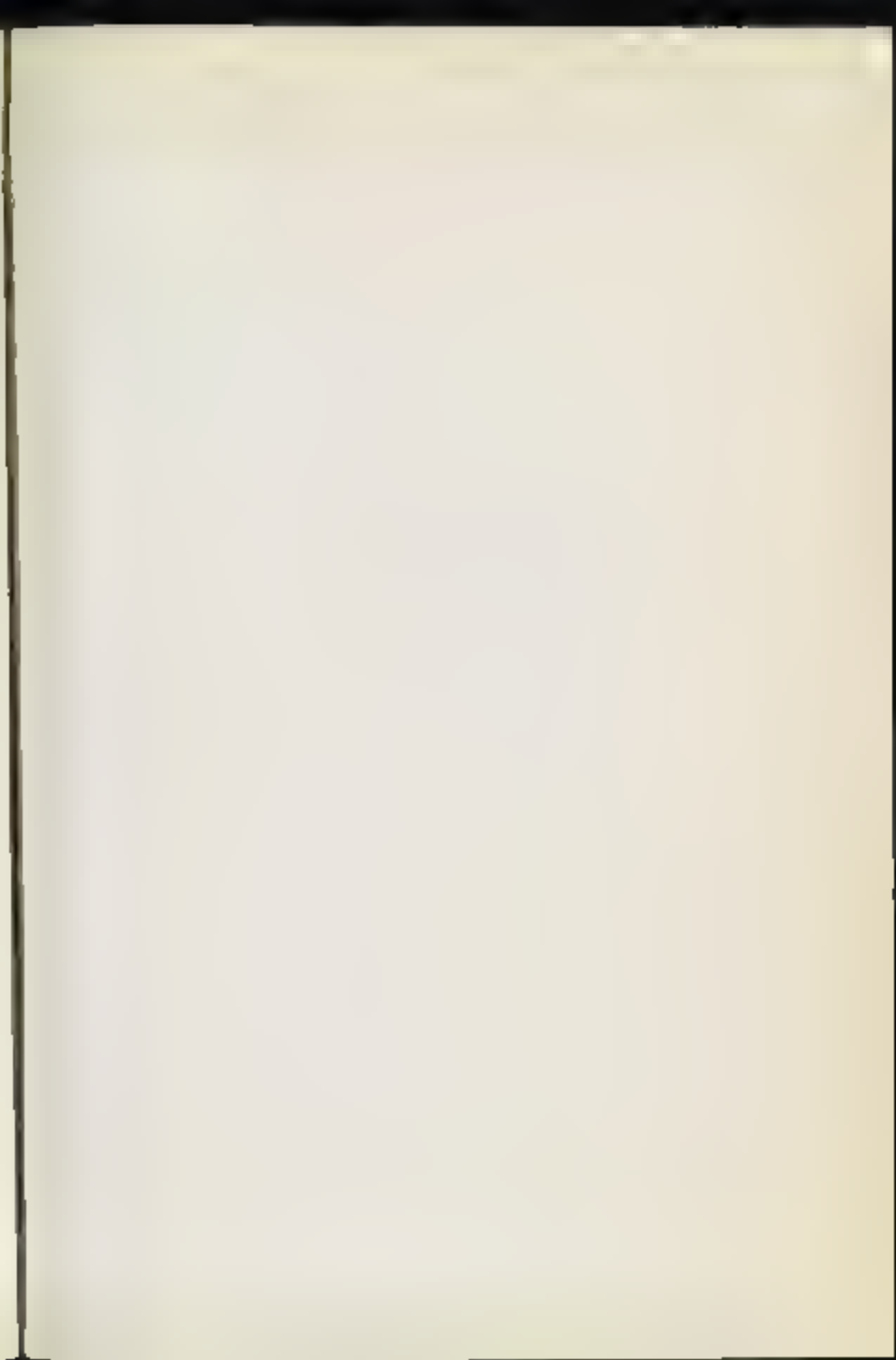
أحد الشهداء الذين علقهم الاتراك . كان حقوقيًا صحفيًا مشهوراً .

فكان ميتاً ابلغ منه حياً ، ولعل شهادة عمر حمد لاعلاء كلمة
امته ، اشجى قصيدة ينظمها شاعر ، وأروع نشيد ترقعه الارض
الى السماء ، رحمه الله رحمة واسعة .

١٩٢٨



الشاعر في الوق



الادب صناعة . واذا كانت صناعة الأدب تختلف عن سائر
الصناعات من بعض الوجوه ، فهي تشبهها من وجوه أخرى :
تشبهها من جهة ان محاصيلها ، ومعنى «المصنوعات» الادبية لا بد
ان تطرح للبيع في اسواقها الخاصة ، او بالاقل ان تعرض على
الجمهور وتقدم اليه خالصة بلا مقابل ، اللهم الا رضاء وتجييده
واستحسانه ، وليس هذا بالثمن البهيس عند كثيرين .

هل تعرفون شاعراً يكبد قريحته ليل نهار ، فينظم قصيدة
عصماء فلا يسمه بعد ذلك الا ان يتفق بابياتها في خلواته ، راضياً
ناعماً البال ؟ او خطيباً يجهد ذهنه ساعات طوالاً ، فيؤلف خطبة
بليلة ، فلا يسمه بعد ذلك الا ان يحملها معه في «الترام» الى
ساحل «شورانت» حيث يلقيها على تلك الامواج الزاخرة
كالجواهر ، سعيد النفس باصطفاق الماء ، مستغنياً به عن تصفيق
الايدي ؟ او كاتباً راوية يقضي الايام باحثاً متفكراً متخيلاً ،
فيبدع قصة ممتعة شائقة ، فلا يسمه بعد ذلك الا ان يمضي بدفتره
الى غابة الصنوبر ليتلو على مسامع اشجارها ، وكل اوراقها آذان ،

ما كتبت ، فيخيل اليه انها تتحرك طربا ، او تبسط أغصانها
باصافحته ، او تقوم على ساقها من قرط الاعجاب به ؟

اذا كنتم تعرفون هذا الكاتب وذاك الخطيب وذلك الشاعر
فدلو في عليهم . ولا تنسوا ان كل قصيدة عندنا ظمها اسماء ،
وكل خطبة عند صاحبها بليغة ، وكل قصة عند مؤلفها متممة
شائقة ، والله اعلم .

*

كان لي صديق من الشعراء^(١) كنت ادعوه «شاعري»
ويدعوني «راويته» لأنه - رحمه الله - كان اذا نظم القصيدة او
بيتين منها لا يقر له قرار ولا يرتاح باله حتي يسمعي القصيدة او
البيتين «اولا بأول» قبل أن ينشدها في الحفلة او ينشرها في
الصحيفة . وكثيرا ما كان يجيئي في ساعة متأخرة من الليل
فيوقظني واهلي النيام ، بحجة ان «عليه بيضة» كما يقول العامة ،
ويجب ان يبيضها . فكنت اقول له: حسن ! لقد «بيضتها»...
نراك بخير !

وفي يوم من الأيام تقدم نحوي كالمفضب مهرولا ، فقال لي
دون سلام : اين انت ؟ انا في طلبك منذ امس . انتهت القصيدة
ولم اجدك ... لم أجد واحدا من اخواننا ، كافكم اختفيم بين

(١) عمر حمد . (التعليق لعمرو فاخوري) .

الأرض والسماء . لقد ضقت ذرعاً ... كدت أموت . هل تعلم ماذا صنعت ؟ لم أنظر في بيتنا إلا يجدي المعجوز « على البركة » فأنشدتها القصيدة من أولها إلى آخرها دون شفقة ، فكانت تهوّم عند كل بيت ورأسها على صدرها . ولكفي لم أقطع الحديث إلى النهاية . ثم سألتها رأياً : « كيف ؟ يا جدي . » فأجابت : « رُح ! الله يرضى عليك » . ولكن ما لنا ولهذا .. اسمع الآن .

وقد سمعت . سمعت وأنا أفكر في الحيزيون^(١) الجليلة التي لم تفهم من ذلك الكلام إلا أن حفيدها « عالم ... يقرأ ويكتب » وفي ذلك الشاعر الحنّيد^(٢) الذي ينشد الجمهور ، مثلاً في جدته الوسى ، قصيدته العصاة .



إذن فالادب صناعة مثل كل الصناعات ، يتوجه أهلها إلى الجمهور ابتغاء مرضاته وبعرضون عليه « بضاعتهم » رجاء أن يتقبلها قبولاً حسناً ، أن يقبل عليها ، أن تنفق في السوق . وإذن فلا مناص للأديب - سواء الشاعر على أنواع شعره ، أم الناثر على أنواع نثره - من أن يعرف حاجة الجمهور وطلبه ، ليكفي تلك الحاجة ويولي هذا الطلب : أن للنااموس الاقتصادي المشهور

(١) الحيزيون : المعجوز

(٢) الشاعر الحنّيد : الشاعر الجيد .

شأنه هنا .

ولكن اي جمهور؟ هل يوجد جمهور واحد ام جماهير مختلفة؟
ان المسافة بين الذين لا يفهمون الا قصة «ابي زيد الهلالي»^(١) وأمثالها ،
وبين الذين تسمو نفوسهم الى «لزوميات»^(٢) المعري^(٣) وأشباهها
- ان المسافة بين هؤلاء وأولئك لبعيدة ، جد بعيدة . وليس ادعى
الى الضحك ولا ابلغ في الهجنة من ان نشهد « ابا زيد الهلالي »
بحجة انه بطل صنيدي ، وقرم عنيد ، ومدجج بالحديد - هاجماً
على ابي العلاء الاعمى المسكين ، ولسان حاله يقول : « مت يا
حاجة بنا اليك ! »

ولا احسب « ابا زيد » هذا ، منها حشر عديده ، قادراً ذات
يوم ، على قتل المعري ، كما ان المعري لم يوفق الى نسخ آية « ابي
زيد » كل التوفيق . بيد ان الادب في كل امة وكل عصر يظل ،

(١) ابو زيد الهلالي : احد ابطال « سيرة بني هلال » : القصة الشعبية العربية
المشهورة .

(٢) الزوميات ديوان مشهور للمعري . حافل بالانتقادات والتأملات في العقائد
والسلوك البشري . سماه الزوميات لانه التزم فيه حرفين في القافية
حيث يكفي حرف واحد ، والتزم ثلاثة احرف ، حيث يكفي الحرفان .

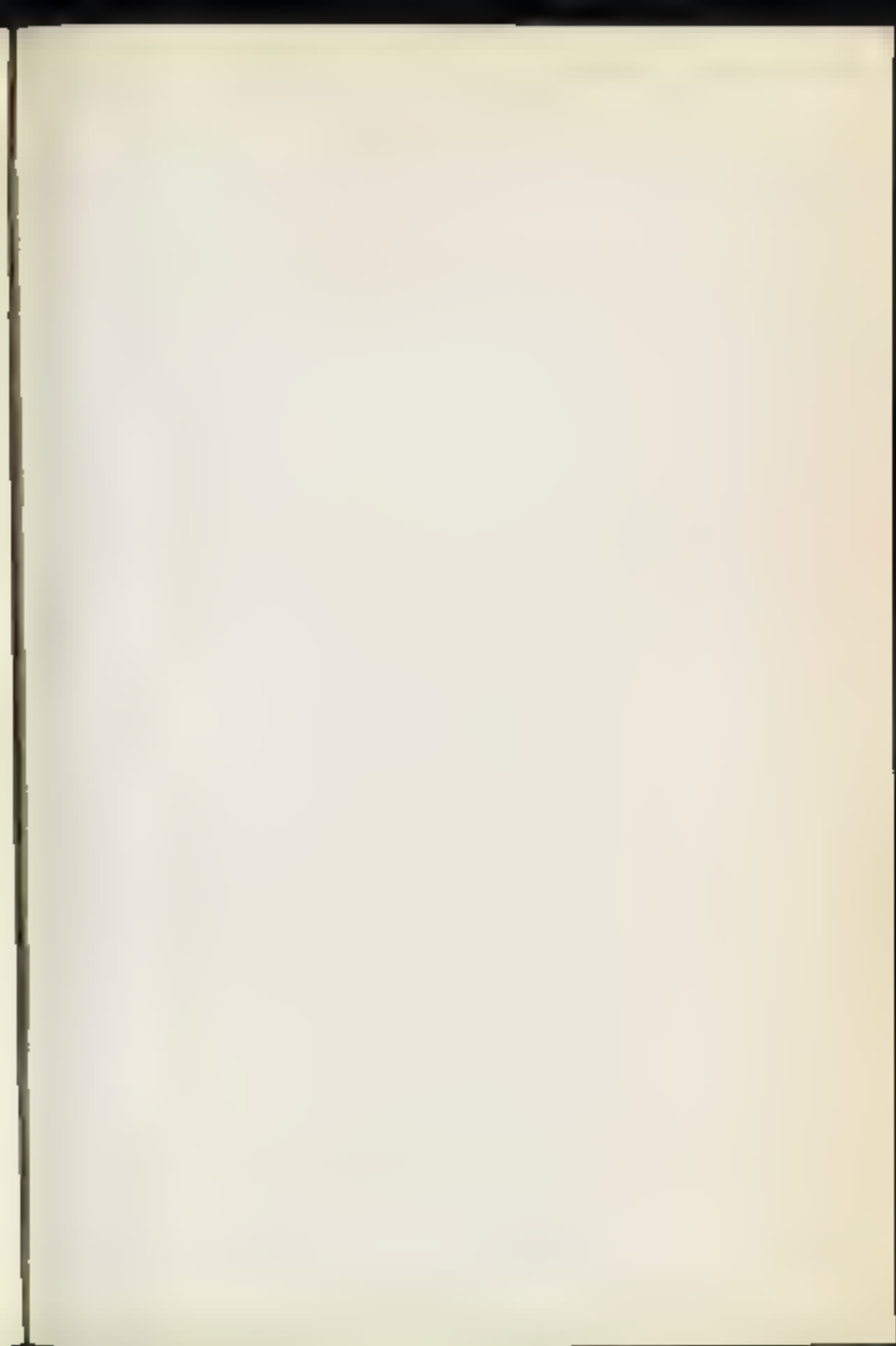
(٣) المعري (٩٧٣ - ١٠٥٧ م) (٣٦٣ - ٤٤٩ هـ) : شاعر عربي انساني
شارك في الفلسفة والحكمة . ولد رحمت في معرة النعمان ، في سوريا .
واليها ينسب . عني صغيراً وغلب على مذهبه التشاؤم والتفكير المستقل .
اشهر آثاره « الزوميات » و « رسالة النفران » .

بين اهل اليمن واهل الشمال ، متجاهلاً - كل يشد الى ناحيته ،
ويعمل على شاكلته .

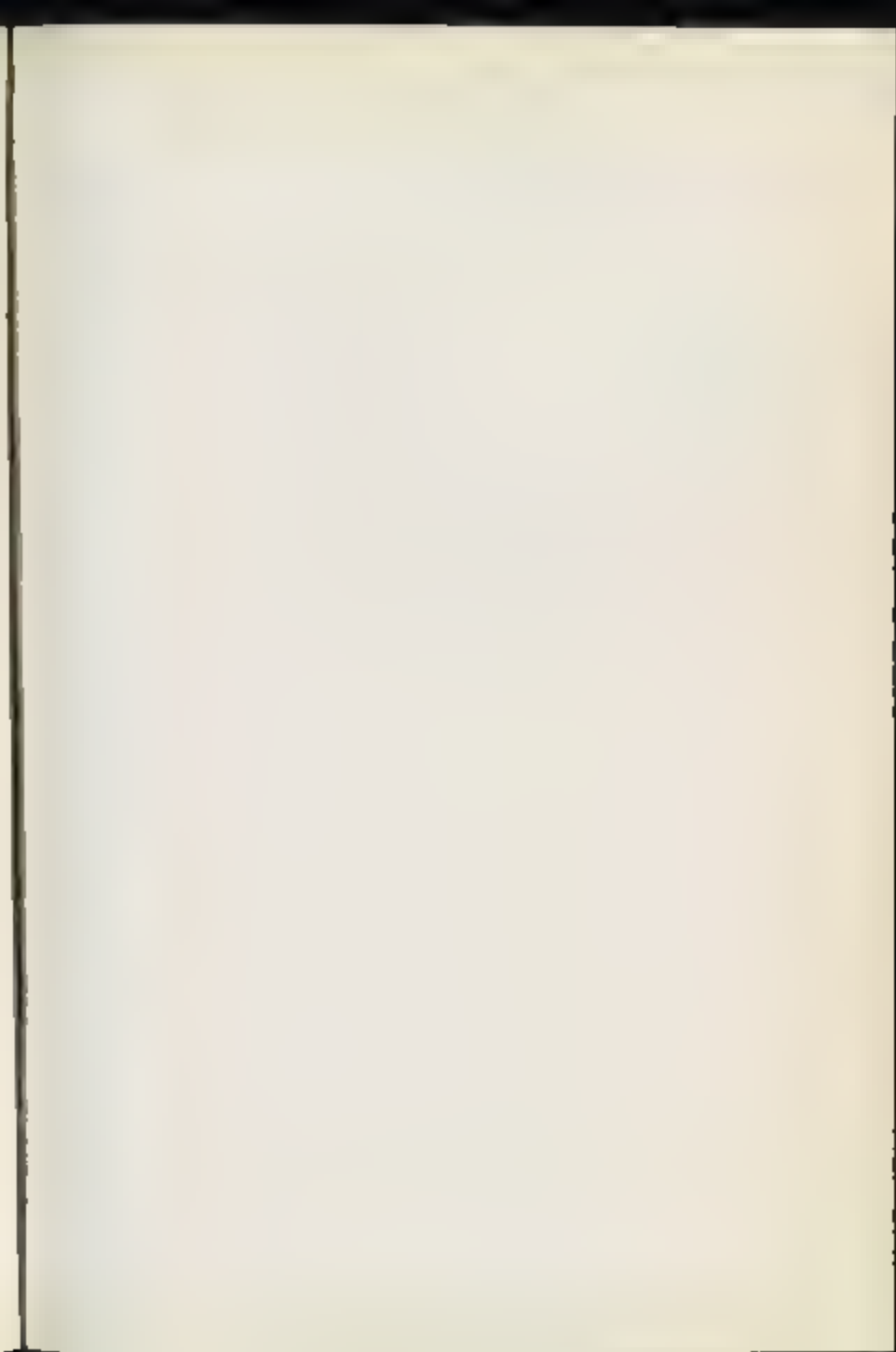
وإذا كانت الآثار الادبية بضاعة معروضة في السوق ، ممرضة
لأن تنفق او تكسب ، فليس من الواجب ان تكون بأجمعها
بضاعة مزجاة او رديئة ، وان تكن الرذالة في هذا الصنف ،
على الاغلب ، شرطاً في رواجها او عدم وقوفها ، بلغة
السوق ..

١٩٢٧

*



ساعة مع العالمي



كنت في معتقب إحدى الصحف إذ دخل الأستاذ العاملي وعلى وجهه أنوار البشاشة والهاشنة ، وظلال الجد والتفكير . فلما بسط إلي يده مصافحاً ، احزنني انه يقبض فراعته اليمنى ومكوتها ، كأنه يشير بمرقعه الى ناحية ، او يتأهب لدفع صدمة . فقلت في سري : «لأمر ما...» وقتل لي حينئذ استاذنا الريحاني الذي نعرف جميعاً انه لا يقدر على بسط يمينه . ولست ادري كيف ذكرت أيضاً ان العاملي في الزمن الاخير استحدث توقيعاً خطياً «زنكياً» يذيل به احياناً قصائده المنشورة في الصحف والمجلات ، وهو على مثال توقيع الريحاني أيضاً ، خطي «زنكي» لكن هذا أقدم عهداً . وممت بأن أقول لنفسني : لعل انقباض الذراع اليمنى والتوقيع الخطي من قبيل توارد الافكار الشائع بين الشعراء ؟ ولكن الأستاذ العاملي قال ، وقوله الحق :

(١) كامل شبيب العاملي ، نسبة الى «جبل عامل» في لبنان ، شاعر معاصر
 تلمح على منوال الاقدمين ، يولع الادباء بدعابته.

- هو «العصي» بليت به أخيراً... وليس الألم في الذراع
فحسب ، بل في جني كفه . أصبحت اذا كتبت أربعة اسطر
احتاج بعدها الى «هدنة» .

- هدنة من صراع شياطين الشعر... شفاك الله يا استاذ !
وتناول حديثنا الادب والادباء ، فطرحنا سؤالاً اجاب
شاعر «الحمايات» عليه بما يلي :

- اني بدأت في نظم الشعر ولي من العمر ستة عشر ربيعاً .
ويبلغ ما نظمته حتى اليوم نحو ٧٥٠٠ بيت في أربعة دواوين ،
أكثرها تحت الطبع .

- إذن لو قسمنا هذا العدد على الايام ...

وقعلاً أخذنا القلم ، فجمعنا وطرحنا وقسمنا ، فإذا بالاستاذ
العالمي قد نظم خلال سبعة عشر عاماً ، في كل يوم ، بيتاً وربع
بيت ، وليس هذا بكثير . فما اضل اولئك الذين يأخذون عليه
انه مكثراً ! قال الاستاذ :

- وعلى كلٍّ فان المكثّر خير من المقل . هذا رأي ذكرته
لبشارة الخوري ... لو أخذت الجيد من كثير الشاعر المكثّر
لكانت أكثر من جيد الشاعر المقل - بالطبع . هذه حقيقة
حماوية في غاية البساطة والوضوح .

*

قضيت مع الاستاذ العاملي ساعة ملاءى بالفوائد . وكنت
أود لو يتسع المجال لنقل آرائه سواء في ادباء مصر وشعرائها ام
في ادباء سورية وشعرائها - آرائه كلها التي كان يبديها بكثير
من الحرية الحميدة دون ان يخشى في الحق لومة لائم . ولكن إذا
لم يتسع المجال لجميع تلك الآراء فلا مناص من ذكر بعضها ليعم
الانتفاع بها ، قال حفظه الله :

- استفتاء « الاحرار المصورة »^(١) في اكبر شعراء سورية ؟
سخافة وأي سخافة لا رأيي ولا رأي أحسد من المماصرين
يقام له وزن . الحكم للمستقبل افقد قطرح « حاسياتي » بعد
ماية سنة في البحر ، وقد ينشدها الناطقون بالضاد ويتغنون
بها بصوت واحد . . من يعلم ؟

- ولكن لو ألحنا عليك بان تجيب على الاستفتاء - بالطبع
بعد ان تخرج نفسك من الموضوع - فما تقول ؟

- أنا لا ارشح نفسي .. المسألة بين خليل مطران^(٢) وبشارة

(١) العدد الاسبوعي من جريدة «الاحرار» البيروتية . درجت في وقت على
شره كل اسبوع ، وفيه طائفة من الفصول الادبية واخبار الادباء .

(٢) خليل مطران (١٨٧٢ - ١٩٤٩ م) (١٢٨٩ - ١٣٦٩ هـ) احد
شعراء العصر القديم ، لقب بشاعر الطرزي (الشام ومصر) وشاعر
الاقطار العربية ، اشتهر بالتصوير الدقيق وبطائفة من المطولات الشعرية
اهمها (نبرون) وكانت له يد في فتح باب التجديد امام شعراء العرب
الحديثين . ولد في بعلبك ونشأ في لبنان ، وقضى اكثر عمره في مصر .

الخوري وآخرها أقرب الى نفسي . أما اشعر المعاصرين على
الاطلاق فشوقي^(١) . ولكن شوقي له عشر قصائد من طبقة عالية
وبها افضل على الشعراء جميعاً ، على حين ان سائر شعره رديء
كشعر ...

.. وهنا أغفل اسماً ذكره الاستاذ العاملي ، لاني لا أحب
ان اكون حامل الحكم بالاعدام «الشعري» على فني ربما كانت
وحيد ابريه ... أليس كذلك يا استاذ ؟

ثم قادنا الحديث ، والحديث شعبون ، الى ذكر الحملات
المشكرة التي كان الاستاذ العاملي يقاها بها ، حيناً بعد حين ،
في طائفة من صحف البلد ، فقلت وأنا أممٌ بامساک طرف
الحديث :

- مثل هذه الحملات يدل عادة على أحد أمرين : أما أن
يكون الرجل الذي يحمل عليه عظيماً ، وأما ان يكون
«لا شيء» يطمع في ان يعده الناس شيئاً ..

لكن الاستاذ لم يكتفي من اقام كلمتي فقال :

- لو ان عشر معشار هذه الحملات نزل بالسيد حلیم دموس

(١) شوقي (١٨٦٨ - ١٩٣٢ م) (١٢٨٥ - ١٣٥١ هـ) شاعر مصري، لقب بأمير
الشعراء في العصر الحديث. امتاز ببغائته وروعة ديباجته. اشهر آثاره :
الشوقيات في اجزاء، وطائفة من المسرحيات الشعرية؛ مصرع كليوباترة
مجنون ليلى ، عنقرة وغيرها ...

لحز صغفراً ..

— الحملات العتيقة أيا الأستاذ ، لا تكون إلا على الحصون المنيعه .

— نعم ، لذلك ما كنت لأبالي بها قط ، بل إن أول عمل آتية ، إذا طعن في — أريد في شعري — أحدهم ، هو أن أقوم بواجب زيارته كأنك لم يك بيننا شيء مطلقاً . والشيء بالشئ . يذكر : لقد قيل لي أنك نشرت منذ عامين في صحيفة «البيان» مقالة بتوقيع «المغربل» انتقدت نظمي بها ...

— كلا ، فأنا أوقع كل ما اكتبه باسمي ، ولست «المغربل» بل صديقه .

— ولكن هل قلت لك كلمة في هذا الصدد ؟ كن على يقين إن ذلك لم يسره لي ... ألم أقل لك مرات : إني سأزورك ؟

وبينا مكنت أجل وأكبر ، من غير كلام ، هذه الاريحية في الأستاذ العاملي ، الواسع الذراع — كما يقول العرب — رغم انقباض ذراعه اليمنى بفعل المصبي المشؤوم الذي لولا علمي أنه لا يُعدي ، لقلت أنه أخذه من «الريحاني» إذ سمعته يقول كلمة هي مسك الختام لهذا الحديث الممتع ، قال بصوت بعيد القرار : — أنك لا تعرفني جيداً . أنا رجس وقعبت فيه الطبيعة كثيراً .

ولقد اعجبني هذا القول من رجل يقول المارقون انه اعظم
مرئجل للشعر في سورية ، ولكن الطبيعة لم ترتجله ، على زعمه
ارتجالاً .

وله في خلقه شؤون .

١٩٢٦

*

١٤٢

الشعر والنداما



قالت العرب من «ألف» فقد استهدف . وقال

الزهاوي : اما رباعياتي فعددتها ألف رباعي

وأسفاه لم يسعدني الحظ بالاطلاع على كتاب (اشراك الداما) للاستاذ الزهاري وفيه كما قبل جمع ٥٠٠ لعبة لغيره من المشاهير و ١٠٠ لعبة من مخترعائه واستفظ لتصوير هذه الالعب طريقة بالارقام .. الخ . وأسفاه لا لأني شديد الولوع بالداما فاطمح الى جعل الزهاوي في احدى طبقات اللاعبين وناصي الاشراك ، كما اني لا اطمح الآن يجعله في احدى طبقات الشعراء ومقيمي الاوزان ، كلا .. وأسفاه لا لأني كنت اذن اتيقن من صحة رأيي يحول في ذهني ، الساعة وقد

(١) الزهاوي (١٨٦٣ - ١٩٣٦ م) (١٩٨٠ - ١٣٥٥ هـ) شاعر عراقي من شعراء العصر ، عبر في شعره عن بعض أفكار جريئة خرج فيها على التقاليد . في شعره تفاوت كثير من الجيد المقبول الى التافه لفظاً ومعنى . اشتهر اثره قصيدته المطولة : «ثورة في الجحيم» وله رباعيات يتناولها المؤلف في هذا الفصل .

طالعت رباعياته مقارناً إياها بالآثر الذي بقي في نفسي من مطالعة ما سبق له نشره من قصائد ودواوين في حينها . وهو (أي الرأي) ان خير ما صنفه الاستاذ وإبقاء على الدهر هو هذا المخطوط في اشراك الداما ، او هو خير (اقل ما يكون) من كل ما وفق الى طبعه حتى هذه الايام ، لتلايقه نعدو الحد بالحكم على المجهول ، وان يكن ثمة افتراض معقول ان الصانع يعرض ، بل يقدم افضل مصنوعاته .

.. آه لا ! مائة شرك مخترع ليست بالشيء اليسير : كل شرك من المائة وليد جهد جهيد ، وسد طويل ، وأوجاع كأوجاع الوضع . ولتعظم هذه المخترعات في عينك اذا ذكرت انها اتت بعد الخمماية - والفضل هنا للتأخر - التي وعرفت البشرية لاستنباطها خلال قرون متمطية بصلبها .

قالزهاوي ، لا مراء ، مدين لنا بكتاب ذي ابواب : في نشأة الداما وتاريخها ، وفي طبقات لاعبيها واهل الاختراع منهم ، وفي المفاضلة بين الداما والشطرنج مثلاً : ايها افيد في فن تعبئة الجيوش واكفل للنصر في الحروب . ثم تكون خاتمة ، انشاء الله ، في رأي تنازع البقاء ببقاء الاصلح ، الذي لا يفتأ يراه الزهاوي ولا نفتأ نعتز عليه نحن في منظومه ، في صورته الدافئة الواحدة ، والذي نحسب انه اهتدى اليه - لكل شيء في دنيانا علة - من لعبة الداما وكم لعب جبر الى جبر ، لا من

مذهب النشوء الدرويني عن طريق الرسائل الشميلية^(١).

ليست الاشتراك المثة المختزعة وحي الخاطر وثمره الارتجال
وبنت الساعة ، بل هي كما اسلفنا ، وليدة التفكير والاجتهاد
والزمن . ولكن الزهاوي في الشعر ورباعياته نقيض الزهاوي
في الداما واشراكها ، بطبيعة الحال ولضرورة الموضوع . هو
في الشعر مكثّر (قال له احد مناقضيه المصريين في مطلع
قصيدة : اقل !) مرتجل فلا ينضج الشواء انضاجاً بل يلوحه
تلويحاً ، مستقل عن الزمان فلا يشاوره في أمر ما يذهب جفاء
وما يبقى لينفع الناس . وإذا كانت كثير الاختراع في الداما
فهو قليل التوليد في الرباعيات . وإذا كان للداما ان تخلد اسماً
فهي التي ستخلد اسمه : صاحب المثة اختراع بعد الخمسة .
وحيقال في ترجمته في ذلك الموضع : وكانت « ايضاً » ينظم
الشعر .

لاحد المة الادب و غوتي^(٢) الالماني كلمة جديدة بان تذكر

(١) الرسائل الشميلية اراد بها مقالات الدكتور شيلي الشميل (١٨٦٠ -
١٩١٧ م) (١٢٧٧ - ١٣٣٦ هـ) ، مذكر بارز سمات الشعر
والجراة في تفكيره ، كان في طلبه من عرفوا الشرق العربي بالمذهب
الدرويني .

(٢) غوتي (١٧٢٩ - ١٨٣٢ م) شاعر الماني عالمي . من كبار اعلام
الحركة الرومنطيقية . تأثر بالقائيس الكلاسيكية ايضاً ، انتج في التمثيل
والشعر الوجداني وفي الفلسفة والسياسة على عمق وابداع . اشهر آثاره :
« فلوست » .

هنا قال : « ليس الالمب الاجزاء من اجزاء . فانه لا يكتب مما
صنع او قيل ، الا طرف يسير » ثم لا يحفظ مما كتب الا طرف
يسير ايضاً . »

ويقول صديقه الشاعر (شلر) ^(١) : « بينا نحن نجهد انفسنا
لتنظم قصيدة لا بأس بها ، إذا بغوتني وليس عليه الا ان يهر
يخزع الشجرة فتساقط على قدميه ثماراً جميلة بانعة . ويقلب ان
تنشأ الاشعار في ذهنه من تلقاء ذاتها ولا دخل لارادته في ذلك ،
بل رغم ارادته احياناً . ولقد نشأت طائفة من غرر قصائده
تامة فلم تكلفه الا مؤنة كتابتها ، ولكن منها ما نام اربعين او
خمين سنة في رحم ابيكار معانيه ، اعني ذلك الدماغ الذي حمل
بنزاجيدية (فارست) الشعرية ما ينبغي على ستين عاماً . »

هذا نموذج الشاعر الذي لم ينظم الا بدافع من القوة الباطنة ،
والا يوحى من قلب غني سخى واحساس فياض وذهن قدير .
هو لم ينظم لينظم بل كمن يضع عن كاهله حملاً ثقيلاً .

لذلك حتى لنا العجب من ان عدد الرباعيات التي تحفنا
الزهاوي بها الف رباعي دون زيادة ولا نقصان ، وحتى لنا ان
ننساءل : لم لم تكن (٩٩٩) و (١٠٠١) بل كانت كأصناف
البضاعة التي تخرجها المصانع حسب الطلب من الاحذية الى

(١) شلر (١٧٥٩-١٨٠٥) فني شعراء الالمان في العظمة والشهرة بعد غوتي
له غليليات وغنائيات رائعة . اشهر آثاره مسرحية (فالنشتين) .

الامشاط ؟ البضاعة والرباعيات الجاهزة ؟

لعل ذلك ليكون بينها وبين الفية ابن مالك وجه شبه . فاذا جاز لاستاذنا ان يفرهن على نفسه نصب مائة شرك من مخترعاته في الداما فحرام ان يعامل الشعر معاملة الداما ، فيقيم وزن الف رباعي او يحندها طابوراً .. الموت .

لعمري الحيام^(١) شاعر الرباعيات الفارسي المشهور في الشرق والغرب نحو ١٤٠ رباعياً هي مما اثبت نقدة الافرنج انها من نظمه . فاذا كانت طبقات كلكتا وبرمباي الاخيرة تتضمن نحو ٥٠٠ رباعي فقد 'نحل'^(٢) الحيام اذن ضعفي الاصل الذي له . وفي هذا دليل على سلطان الرباعيات الحيامية وعظيم الرها في النفوس وعالي مقامها في دولة الادب . اما الآن وقد ذهب عصر الانحال بقيام دولة الطباعة فلم يعد من سبيل الى التساؤل كم تصبح رباعيات الزهاوي بعد كذا من القرون ؟ ولكن لو .. فهل كانت تزيد رباعياً واحداً انعم في قدرة صاحبها ان يزيد بها آلافاً من هذا الطراز .

١٤٤ رباعياً خيامياً ، كل واحد منها جوهرة بتمام المعنى وجدته

(١) عمر الحيام (القرن الحادي عشر الميلادي . الخامس الهجري) شاعر فارسي جمع بين الشعر والفلك والرياضيات . اشتهر اثاره «الرباعيات» ادارها على التفرز بالحانة والشراب وجمال الحبيب واشاع فيها فلسفة خاصة في الحياة قوامها الفذة واللاذرية والنظرة المنفتحة الى الاديان .
(٢) نحل : نسب اليه شعر لم ينظمه .

وكال الاسلوب ودقته . فيها خلاصة حياة الخيام متبلورة كالناس ؛ فكره للنفاذ واحساسه الرقيق وعاطفته الحية ، وطبع غير متكلف وصديق لا يعرف الرياء . كان يزر اليه يجذع الشجرة فتساقط على قدميه غاراً جميلة يانعة .

لو عاش الخيام في «عصر الزهاوي» لقال الاول للآخر : لا ، بالله عليك ! لا تقل في مقدمتك على هذه الرباعيات المتأخرة : وقد اخذت طرفاً من الدساتير الاجتماعية لغوستاف لوبون ^(١) متصرفاً فيها تصرفاً يقربه من النظم ، وعدد هذا لا يتجاوز الثلاثين رباعياً ، بل لا تأخذ اجتماعيات . . ذلك العالم : اولاً لأن هذا يذكر الناس بنظامي علوم اللغة والطبيعات والشرع في عصور الانحطاط اللغوية ، وثانياً لأن الراغبين في اجتماعيات لوبون يرغبون عن (رباعياتنا) الى تصانيفه . . ولكن لا بأس ا في قولك : «وعدد هذا لا يتجاوز الثلاثين رباعياً» لهجة الاعتذار . وإذن كان الخيام يقول للزهاوي اشياء كثيرة غيرها .

وبعد « فلماذا اختار الزهاوي هذا النوع من انواع النظم أو هذه الصورة ، صورة الرباعي ؟ بالطبع لا للتوزيع فحسب ، ولا لأن صيت الخيام ملأ الافاق وحبه ملك القلوب . كلا ، فالرباعي في ذاته لا يكفي للحصول هذه النتيجة ، وما كان لصيت الخيام

(١) غوستاف لوبون (١٨٤١ - ١٩٣١) كاتب فرنسي له احكام في الاجتماع والتاريخ . لا تغلب عليه دائماً صفة العالم المنسق .

ان يفيء ظله في هاجرة النسيان على غير ما نظمه هو . فينبغي
إذن ان يكون ثمة ما اغرى الزهاوي باختيار هذه الصورة او
القالب الشعري ، فكيف كان ذلك ؟

الجواب في كلمة لأحد حكماء العصر الشعراء « نيتشه »^(١) الذي
يقال انه اكبر شعراء الافكار تمييزاً لهم عن شعراء العواطف ،
والذي كان لأسباب صعبة لا يصنف ، الا فيما ندر ، كتاباً متأسك
الاجزاء الآخذة بعضها برقاب بعض ، بل كان يقيد آراءه واحداً
واحداً بعد التفكير الطويل والنضوج الوافي ، في جل موجزة
لبابيه يسمونها « افوريسم » أو جوامع الكلم . لست أذكر ما قاله
بنصه ولكنه يشبه هذه الكلم الجوامع بقصم الجبال ، قائلاً ان
الجبار وحده قادر على ملوك اقصر طريق من قمة الى قمة ،
بتخطي الوديان .

فيمكن الآن القول ان نوع الرباعي في الشعر هو كالافوريسم
في النثر وان الزهاوي اختاره ليودعه زبدة تفكيره وشعوره ،
فتكون الرباعيات اعلى مظاهر التفكير والشعور ؟ اجل ومن
هذا القليل قوله في القطار :

مشى بنا فوق خطين ينهب الارض نهياً

(١) نيتشه (١٨٤٤ - ١٩٠٠ م) ، فيلسوف الماني . دعا للذهب القوة وما
سماه « الانسان الفائق » . اشهر اقواله : « هكذا تكلم زرادشت » .

وقوله في الكهرباء «أساس الحضارة» :

به التراسل فيه الشفاء منه الضياء

وقوله في «نسب» الشمس :

فإنها أم دنيا وأبنة اللاتناهي

إلى غير ذلك من التعاريف العلمية المفيدة وهي كثيرة .

أما التضمينات المعجبية النادرة فإنك لا تكاد تـُـلق قلب صفحة
الا عثرت بـمـضـها : «ولكم في القصاص حياة . نظرة فلقتة فسلام .

ما كل مرة تسلم الجرة» . وغاية الابداع في قوله «مضمنا» :

إن المدارس أما أمثلان تخلو السجون .

وفي قوله :

افعل بشريك ما تريد ليفعلوا

بك مثله وحكما تدين قدان

حجبر اصاب به عصفورين : الآية الانجيلية والقاعدة الإسلامية .

وما سوى ذلك آراء في . . كل شيء ، تروق إلى مثلها المرحوم

جـدك الا انها في هذه الريايعيات خسرت لمجة الصدق والسذاجة ،

دون ان تعاض عنها ، اللهم الا بالوزن .

لا حول ولا . . ها نحن هبطنا من قم الجبال . ولكن لا بأس

فقد عرفت في الوادي السبب في أني ما سمعت ولا ثلوت يوماً

قصيدة جديدة من نظم الزهاري الا أحسست احساساً غامضاً

كأنما سبق لي سماعها أو قلاوتها أكثر من مرة ، قبل هذه المرة ..
حس لا يخدع عما هو جديد ، وعما هو مدع للتجديد .

أما التواضع فشاعر الرباعيات قدوة فيه ، قال :

أيا الحب سكنت لي
قبلاً سكنت للبشر
قبلاً سكنت للكوا
كب والفجر والقمر

ومن هذا النوع قول مصطفى صادق الرافعي :

لو يسمى في الأنام الحب ما اختار سوى اسمي

بينما (دو بورثوريش)^(١) الشاعر والتراجيدي الفرنسي الذي
أجمع النقاد على أنه من أبرع المعاصرين وصفاً للقلب الإنساني في
حالات الحب ، لا يقول « في الفخر » غير هذا البيت :

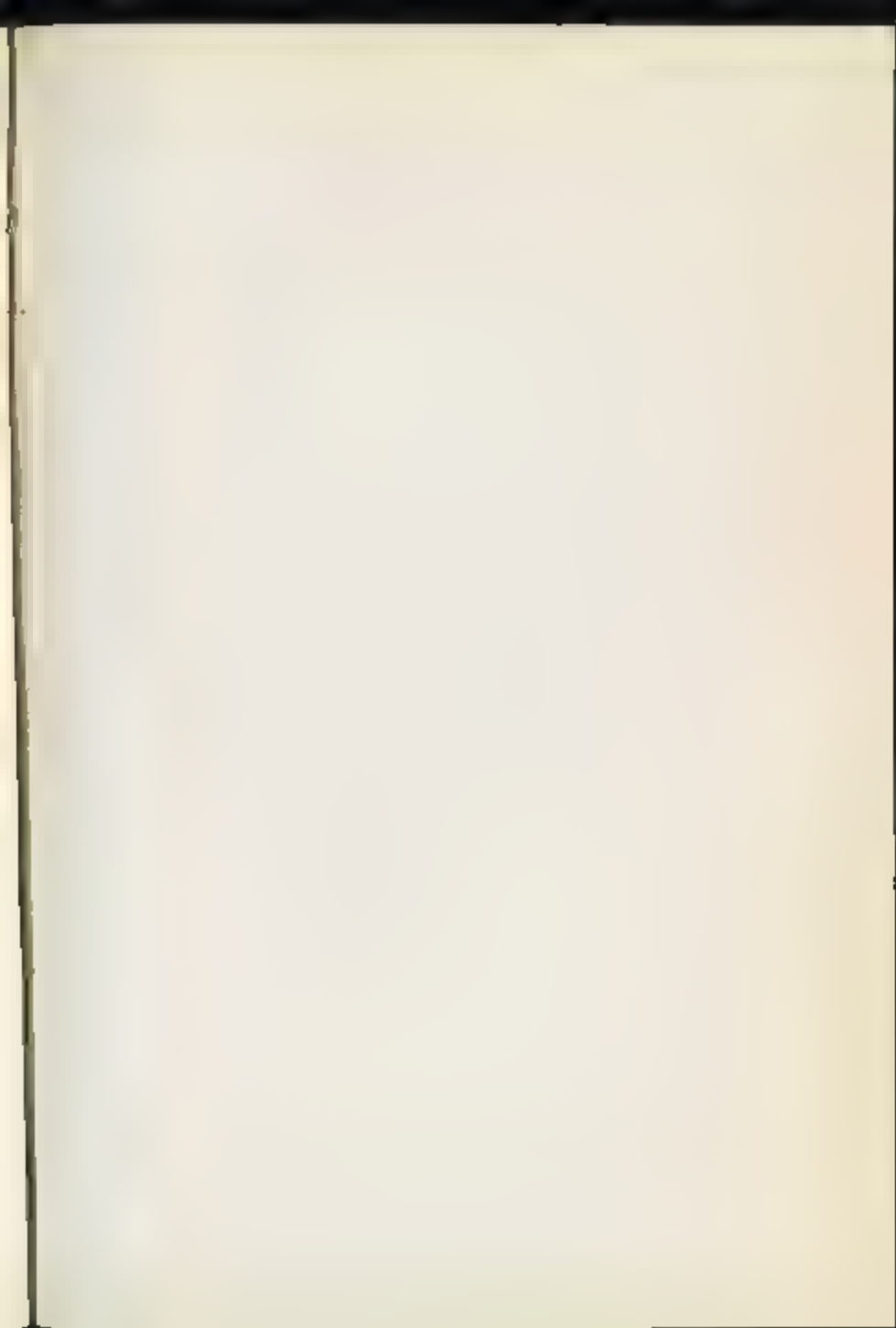
« عسى أن يكون لي اسم في تاريخ القلب ! »

اسم في تاريخ القلب أو اسم في تاريخ الداما ؟

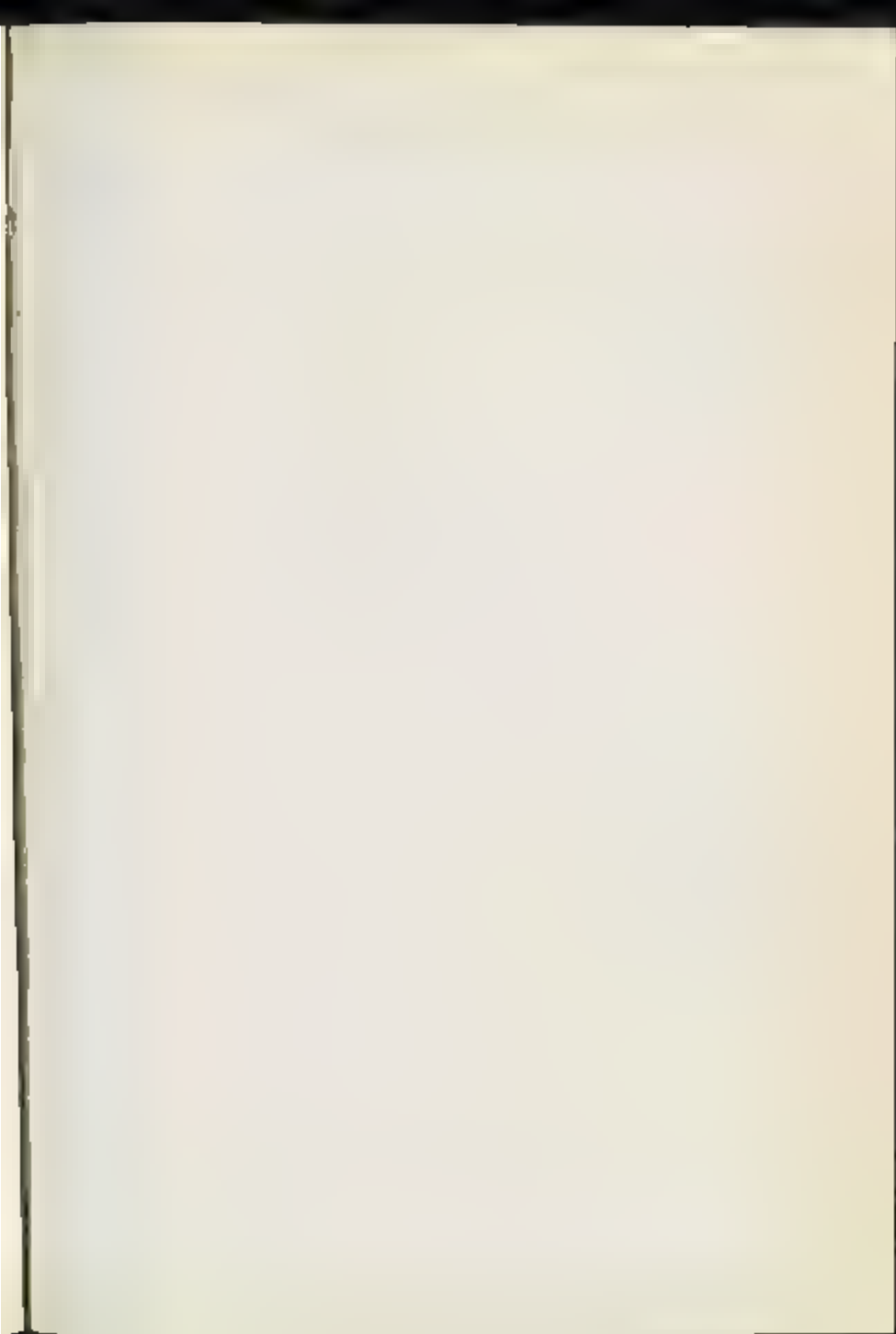
المهم أن يكون لك اسم في تاريخ « شيء » ..

١٩٣٤

(١) جورج دو بورثوريش : شاعر ومؤلف مسرحي فرنسي في القرنين
التاسع عشر والعشرين . أشهر آثاره : « العاشقة » .



بين شاعرين



سولي برودوم^(١) والباس فياض^(٢)

اني كثير المطالعة قليل الكتابة . وقد أوتيت بسطة من
المعيش وكثيراً من الفراغ يسر الي الانصراف الي كتيبي ودفائري ،
اقرأ وافيد ما يمن لبالي ، وقلم اغفل شاردة أو واردة لاعتقادي
انها قيد يوماً من الأيام . ولو شئت الآن ان اعيد النظر في حباتي
الماضية واحصي ما مر علي من حوادث جديرة بالذكر ، كي
اكتب سيرتي بنفسي ، لاستطعت دون عناء ، اختصارها في هذه
الجملة الجامعة «مطالعات في زاوية بيت» فان الكتب التي طالعتها
هي اعظم حوادث حياتي .

(١) شاعر فرنسي يعرفنا به المؤلف تعريفاً وافياً في هذا الفصل .

(٢) الباس فياض (١٨٧٢ - ١٩٣٠ م) (١٢٨٩ - ١٣٤٩ هـ) شاعر
لبناني تبرز عليه سيات النزعة المجددة في الشعر العربي المعاصر . من اثره
«ديوان فياض» ، وطائفة من مسرحيات فترية اكثرها مسرح .

كذلك لست أعرف واحداً من ادبائنا المعروفين معرفة شخصية ، غير محاول التعرف اليهم ، مكتفياً بقراءة ما يكتبون وما يكتب عنهم ، متصوراً ذاتياتهم ، المادية والمعنوية من خلال كتاباتهم وكتابات النقاد عنهم . وبقدر ما تكون كتابات الادباء شفاقة صادقة تكون تصوراتي واضحة ، ولكن هذا نادر لأن أغلبهم يطرحون بينهم وبين القراء ، بغلبة الصنعة والتقليد على شعريتهم ونثرهم حجاباً كثيفاً . واني لأجد في تصور كتابنا وشعرائنا المعاصرين على هذه الكيفية ، لذة تذكرني بما كنت أجد من لذة وأنا أحدث السن ، في حل الألغاز والأحاجي الراجحة بين الناس . بيد أني لم أحاول مرة ان أجرب صدق فرائسي فأتعرف الى فلان الشاعر مثلاً ، لأقارن بين صورته في ذهني وصورته في حقيقته ، لبيبين : أولهما الكسل عن معايشة الناس لاسيما طائفة الادباء منهم ، وثانيهما الخوف من ان أجمع بصوري في خلقها اكبر نصيب . وقد يكون ثمة اسباب اخرى لا اتبينها الآن .

زرت مصر منذ نحو عشرين سنة فسمعت حافظ ابراهيم^(١) يلقي في إحدى الحفلات قصيدة لشاعر مشهور لا أذكر أهو شوقي أم اسماعيل صبري^(٢) أم غيرهما . فحدثت لهجته في نفسي أثراً بليفاً

(١) حافظ ابراهيم (١٨٧٢ - ١٩٢٢ م) (١٢٨٩ - ١٣٥١ هـ) شاعر مصري مقدم من شعراء العصر . لقب شاعر النيل . اشتهر بقصائد غنائية ومنهية تجارب فيها والروح الوطني ، قاصبه الشعب . واجاد حافظ في الرثاء العاطفي .

(٢) اسماعيل صبري (١٨٦١ - ١٩٢٣ م) (١٢٧٨ - ١٣٤١ هـ) : شاعر مصري معاصر . كان مفلاً ولكنه متقن .

وبقيت زمناً طويلاً لا أقرأ «دعيتي» شعراً إلا كان يخيل إليّ أنّي
 اسمع لهجة حافظ كأننا نبرات صوته ترن في انحاء نفسي. فكانت
 صورة حافظ تخالط في ذهني صور الشعراء الذين أقرأ لهم فتتكرر
 صفاء تصوري ، كالأخيلة التي يراها الحالم في رؤياه ولا يفلح في
 إبعادها إلا إذا استيقظ ، بل قد يبقى شيء منها حتى بعد اليقظة ،
 حيناً قليلاً ثم تضيع . وأخيراً انتهت الأيام لهجة حافظ
 وصوته فكنت كمن أفاق من حلم مزعج فإذا أعضاؤه
 سليمة ، وحياته في أمان ، ولا أشباح تعذبه مكشورة عن

... مسنونة زرق كانياب اغوال.

اني اذن منذ سنين طويلة منصرف الى مطالعة الكتب في
 زاوية بيتي . وقد اتت علي اعوام لم أقرأ في خلالها الا دواوين
 الشعر من عربية وافرنجية ، قديمة وحديثة. فأولمت زمناً
 بالمقارنة والمقابلة بين الشعراء ، لاكتشاف أوجه الشبه او الاختلاف
 بينهم ، مغتبطاً كلياً وفقت في معاني اغتباط الرحالة الذي
 يستكشف مجاهل الارضين والبحار. ويظهر انه كان لي شيطان
 يلهمني ويسدد خطواتي ، والا فكيف قرأت في وقت معاً
 ديوان الشاعر المصري الياس بك فياض وديواناً صغيراً للشاعر
 الفرنسي (سولي برودوم) يتضمن قصيدة عنوانها (الجمرة) تشبه
 قصيدة (التجوم) لشاعرنا العربي شهماً عجيباً ؟

الياس فياض شاعر مطبوع رقيق . وليس بضاره انه مقل ،

فلعل له في اقلاله عذراً ، او لعل ذنبه الكسل ، او لعله نظم كثيراً في شبابه ثم ناله شيء من العياء (ولا اقول : العمى) فأحسب ان يأخذ لنفسه شيئاً من الراحة ، كالمسافر الذي قطع مسافة طويلة . يعني صخبيراً بالترجمة عن الفرنسية لاسيما ترجمة القصص التمثيلية . وعرب ايضاً بعض القصائد مثل (مقووط الاوراق) للشاعر الفرنسي (ملفوا) ^{١١} و (اذكريني) لألفرد دو موسه ، و (النسيم العاشق) التي اخذها من قصة غنائية شعبية اسمها Les Bouffons وبدعى صاحبها ميكال زاماكويي ^{١٢} وتعمريبه هذه القصائد حسن ، رغم ما يعانيه المترجم ، على الاخص اذا اراد ان يترجم الشعر الفرنسي في شعر عربي مبين .

اذكر ان الاستاذ فياض نشر منذ بضعة اشهر في صحيفة المعرض مقالة ممتعة طلية انتقد بها قصيدة من نظم محمد كامل شبيب العاملي وهي قصيدة فلسفية أو علمية أو إلهية ، يقول صاحبها فيها اشياء عن النجوم ١٢ وكان الاستاذ فياض معيباً في نقده ذلك الاصابة كلها ، ولكنه قابل في مقالته الانتقادية بين ابیات العاملي وابیات لشاعر لم يذكر اسمه « وان يكن اغلب القراء عرفوا انه الياس فياض نفسه صاحب قصيدة النجوم المشهورة » المنشورة في ديوانه .

ان قصيدة النجوم ، لالياس بك فياض ، هي قصيدة الهجرة

(١) ملفوا (١٧٨٢ - ١٨١٦ م) : شاعر فرنسي يعتبر من المهديين للرومنطيقية .

(٢) ميكال زاماكويي شاعر ومؤلف مسرحي فرنسي في القرنين التاسع عشر والعشرين . من آثاره : « المهرجون » و « الزهرة المجدبة » .

La voie Lactée لسولي برودوم . ولا ادري لماذا لم يذكر
الشاعر العربي انها منقولة عن اصل فرنسي ، كما ذكر انه نقل تلك
القصائد الثلاث المعروفة : سقوط الاوراق ، واذكريني ، والفسح
العاشق . لأنه لم يراع الاصل في الترجمة مراعاة تامة ، أم لأنه
حور آخرها تحويراً طفيفاً؟ وعلى كل فان تلك «الحلقة» الفرنجية
لم تتكرر في حللتها العربية تتكرراً يضيع عنا حقيقةهما : قد
عرفناها وهل يخفى القمر ؟

واليك قصيدة المجرة ترجمتها نثراً عن الفرنسية متقيداً بالاصل
غاية جهدي ، وبإزائها قصيدة النجوم كما نظمها الياس بك فياض
باسلوبه الرائق :

المجرة النجوم

[لشاعر الفرنسي سولي برودوم] [لالياس بك فياض]

قلت للنجوم ذات مساء :	قلت للنيرات ذات مساء :
لا اخالك سميدة ،	أترى انت مثلنا في شقاء ؟
ان لأنوارك في اللانهاية السوداء	سأهرات الجفون - هل لفراق ؟
حنيناً شجياً .	خافقات الضلوع - هل للقاء ؟
	هائات مع المجرة تجريد
فكأنني ابصر في السماء	ن الى غير غاية أو رجاء ،
جنازة بيضاء يتقدمها عذارى	مثل سرب من المها ، ظامئات
يحملن شموعاً لا تحصى	حول ماء يمنعن ورد الماء ،

ويلتبع بعضهم بعضاً بفتور .

او عذارى من حول نعل

حيارى

أأنت ابدأ في صلاة ؟

في صلاة ما تنقضي ودعاء .

ام انت كواكب جريئة ؟

ان في لحظك الشبح حينئذ

ان هذا الذي تريقينه

تأفذاً سهجاً الى احشائي .

لدموع من ضياء لا اشعة .

وارى نورك الضئيل كدمع

سائل من محاجر بيضاء .

انت النجوم ، جدة

انت في اللانهاية السوداء ؟

الخلائق والآلهة ،

انت يا جدة الخلائق ، ام الد

أأنت تبكين ؟

هر ، يا ربة الهدى والضياء !

اجابت : نحن في عزلة ..

انت تبكين يا نجوم ؟ اجابت :

نحن في عزلة بهذا الفضاء :

كل واحدة منا بعيدة جداً

بيننا الهجر من قديم فلا يف

عن اخواتها وان خلقتها قريبة ا

ورك منا تقارب الاضواء .

ولورها اللطيف الضئيل

كل نجم منا يعيش بعيداً

لا شاهد له في موطنها .

عن اخيه في وحشة وجفاء ،

محرقاً نفسه بغير انتفاع ،

ومكذا فان توقد اشعتها

ذاهباً نوره سدى في السماء .

يضمحل في سموات لا تبالى .

قد فهمت الذي تقولين يا شم

ب فانتن انفس الشعراء :

قلت لها : قد فهمت ما تقولين ،

فانكن تشين الانفس . هكذا نورها يضيغ بافق

زلت منه منزل الغرباء ،

كذلك هي : كل نفس قضى

بعيدة عن اخوات تخالون على

كشب منها ،

وهذه الخالدة في عزلة ،

تحترق صامئة ، في الظلام ..

هذان هما الاصل الفرنسي والاقتباس العربي ، ولا أحب

القاريء واجداً للذة في قراءة ترجمتي المنشورة الا هو واجد

اضعافها في قراءة الاقتباس العربي المنظوم . ولكنه يحسن كذلك

صنماً اذا أخذ في مقابلة القصيدتين ، فرأى كيف يقدم الاستاذ

فياض ويؤخر ، وكيف يختصر المعاني 'حياناً' و'حياناً' يفصلها ،

وكيف يجهد لابرار تلك الصور الفرنجية في حلة عربية ، وأين

وفق وأين لم يعمده التوفيق . أدع ذلك لغواة الشعر من القراء ،

ولا يخفى ما فيه من اللذة والفائدة على السواء .

ان الاستاذ فياض ، لما قابل في نقده العاملي ، بين أبيات هذا

الفاضل وأبيات الشاعر الذي لم يذكر اسمه والذي حسبته الناس

بومثد الاستاذ فياض نفسه لأن الأبيات من قصيدة منشورة في

ديوانه - نقول : لعله لم يذكر اسم الشاعر بومثد لأنه وتذكره ،

فجأة ان قصيدة النجوم هي في الحقيقة قصيدة المجرة .

ولكن الشاعر الفرنسي برودوم يتكلم في قصيدته عن
الارواح او الانفس ، عن ارواح بني آدم جميعاً ولا يخص انفساً
دون آخرين . فلم يحصر الاستاذ قياس المسألة في طائفة واحدة
من الناس هي طائفة الشعراء ؟ الآن الشعراء وحدهم ذرو ارواح
وانفس ، ام لانهم اصحاب وجدان ؟

«دمشقي»

*

كتاب مفتوح

سيدي الاستاذ الريحاني حفظه الله

اذا كان شيخكم شيخ الفلاسفة افلاطون^(١) اخرج من جمهوريته
الشعراء الذين يتبعهم الغاؤون ، وفي كل واد يسمون ، فلماذا
عصيت امره ؟ ألا ترون يا سيدي رأيه انهم يعيشون في المجتمع
وفي اخلاق الناس فساداً ؟ اقول ذلك لأن الشعراء ما كادوا
يبلغون في هيامهم الطويل وادبكم ، وادي الفريكة ، الا كتمتم
الى لقاءهم خفافاً ، فاحسنتم وفادتهم واتزلتموهم على الرحب
والسعة ، كأنكم تريدون تطيب خاطرهم فينسوا آلام النفي

(١) افلاطون : فيلسوف يوناني قديم امتدت حياته من اواخر القرن الخامس
قبل الميلاد الى منتصف القرن الرابع . تعلم على سقراط . اشتهر بنظرية
المنزل . من اشتهر اثره كتاب : « الجمهورية » الذي يذكره المؤلف في مطلع
هذا الفصل . وهو كتاب يصور فيه الدولة الفاضلة بحسب ما كان ممكناً
في عصره .

الجزائر الذي حكمت به عليهم منذ اجيال وقرون ، الحكمة
- لا المحكمة - حكمة الامام افلاطون عفا الله عنه .

ومن قبل ياسيدي اكرمتم المعري إذ ترجمتم شعره في
الانكليزية رباعيات ، فزعم بعض المحبين - وهم كثير - ان الترجمة
افضل من الاصل المعري ، ولكني أجد عناء كبيراً في تصديق
هذا الزعم : لأنني أحب المعري في عرويته كما هو ، حساً جماً
واعجب به اعجاباً لا حد له . وللمعري مثل يستطيع مترجم
مها يكن مجيداً - وان يكن الرخيص - ان يترجم الى لغة
اجنبية شعر الشاعر المعبري ، فتأتي هذه الترجمة خيراً من
الاصل ؟ وعلى كل فاني لأرجو ان يكون المعري ، يوم نشرت
رباعياتكم الانكليزية قد حملت اليه نسخة منها في ظلال الجنة
التي وعد المتقون ، فحلف الى «ملذون»^(١) يقرئها ، ثم جلسا
يتعاطفان^(٢) .

اقول : في الجنة . اجل ، فالجنة ليست بتشيئة الله كجمهورية
افلاطون خلاء من الشمراء . بل إذا كان هؤلاء الذين يقضون

(١) ملذون ١٦٠٨ - ١٦٧٤ م « شاعر انكليزي عالمي ، اصيب بالعمى ،
اشتهر بلعنته : «الفردوس مضاء» و «الفردوس مستعاد» . دار في
الارل على موضوع سقوط الانسان ، وفي الثانية على موضوع ظفر الانسان
بالمغفرة . وله مؤلفات سياسية كتبها نفراً رسطو فيها اراء ثورية كالدهوة
لجمهورية في اتكلترا ، مع فصل الكنيسة عن الدولة . والدعوة لحرية
الصحافة .

(٢) يتعاطفان ويتعاطفان كأنهما في سوق عكاظ .

عمرهم متوجعين من حياتهم الدنيا ، شاخصي البصر متطلعين الى جنات النعيم حتى اذا لمحوها المحاء ، او هبت عليهم منها نفحة عادوا الى انقسامهم يحددونها ليصوروا للناس ما رأوا ، وليودعوا شعرهم تلك النفحة العلوية - إذا كان هؤلاء لا يقوزون بالجنة فمن الفائزون ؟ وثائقه ان لم يكن الشعراء في الجنة فأين يكونون ؟ ألا ترون يا سيدي الريحاني انه ليس من الحكمة جعلهم في دركات الجحيم ، انلا يفسدوا على الموكل بعذاب الاشقياء عمله ، فيسلوا المعذبين عما هم فيه من العذاب ، كما يسلون البشر في هذه الدنيا ؟



لنعد الآن ، إذا اذنتم ، الى حبيكم الشعر والشعراء رغم انهم افلاطون ، صاحب تلك الجمهورية الخزينة . قلت انكم اكرمتم المعري من قبل ، واقول انكم تكرمون الياس بك فياض من بعد ، او تحسبون انكم تكرمونه فإذا انتم في الحقيقة تكرمون الشاعر الفرنسي سولي برودرم . ولا ادري لمن الذنب في هذا ، بل يخيل لي ان الذنب لشيطاني انا . واليك القصة :

كنت منذ اسبوعين في هذا (النديم) المؤنس مقالة قابلت فيها بين قصيدة (المجرة) البرودومية وبين ترجمتها (لنجوم) القياضية . وقلت يومئذ انني شيطاناً يلهمني في المقارنة او المقابلة بين الشعراء ، ويسدد خطواتي ، والا فكيف قرأت معاً ديوان

الشاعر العربي فياض وديوان الشاعر الفرنسي برودوم ؟ ويلوح لي ان هذا الشيطان بينا سكنت اكتب مقالتي تلك ، سول لكم أن تجلسوا حول طاولة المدام ، على رواية مجلة «ميترقا» في جزئها الاخير ، فتذكروا الشعر والشراء والشاعرين ، فينشدكم الاستاذ فياض قصيدته «النجوم» فتفعل القصيدة في نفوسكم ، ويحملكم الاعجاب بمعانيها وعبائنها على ان تهتفوا : والله ! الله ! هذا شعر خالد . هذا شعر الامم . ثم تبرعتم يا سيدي الريحاني بنقلها الى الانكليزية ، او اقترح عليكم ذلك ، ولا فرق فإلهم انكم فعلتم : ترجمتم قصيدة «النجوم» العربية في لغة شكبير .

ولماذا ؟ بالطبع لا ليقرأ هذه الترجمة الجيدة في مجلة منيرفا ، قراؤها من الناطقين بالضاد ، كما انكم لم تقتبسوا بعض لزوميات المعري وتودعوها رباعياتكم الانكليزية لا تمتعنا بمطامتها . لقد اردتم في كلنا الحاليين ان تظهروا الاقرب على آدابنا ينقل طائفة من مخاضها العالية .

ولكن .. أرايت يا سيدي : لو ان شيطاني نشر غداً او بعد غد ، في إحدى المجلات الأمريكية التي تزدهان بمقالاتكم ، بعد مقدمة وجيزة بطري فيها الالب العربي في هذا العصر ويذكر فضل الاستاذ فياض عليه .. اجل ، لو ان شيطاني نشر قصيدة النجوم بالعنوان الآتي :

The Stars

■ Elias Fayad

Translated by Ameen Rihani

على نحو ما فعلت «مينرفاء» ثم اخذ المجلة فحق أمريكي يطلب العلم في كلية الآداب بباريس وبشتغل في اطروحة - كما يقول صديقي المجمع العلمي العربي - موضوعها : «الرأي الفلسفي في شعر سولي برودوم» او «سولي برودوم والمذهب البرناسي» لينال باطروحته شهادة الدكتوراة في الآداب ، فوقع نظره صاحبكم على «لجومنا» فقرأها فذكر انه قرأ شيئاً من هذا القبيل في غير هذا الموضوع ، ثم ذكر اخيراً انها «مجرة» شاعره سولي برودوم ... أرايتم يا سيدي الريحاني لو ان القصة تختم بقول الفق الامريكي وهو يضحك :

- ولكن .. ولكن .. هذه بضاعتنا ردت إلينا !



إذن ، لقد هتفتم يا سيدي ليلنثذ : وهذا شعر خالد. هذا شعر الامم ! اما انه شعر الامم ، فلا عجب : قصيدة افرنجية التصور والاحساس والتفكير ، اشترك في وضعها قلب عربي ودماعه ، ولكنكم تغفرون لي جرأتي إذا قلت ان اكثر اعجابكم بها ناتج عن ان هذا النوع من الشعر نادر في أدبنا العربي بل يكاد يكون معدوماً ، والا فان للشاعر الفرنسي سولي برودوم في دواوينه الشعرية العشرة مئات من القصائد تماثل قصيدة المجرة او النجوم وتفضلها ، وليس سولي برودوم في الطبقة الاولى ولا الثانية بين شعراء الفرنسيين . كان امام البرناس وهو مذهب في الشعر تقوم

دعوة اهل على تجويد المبنى ولا مذهب لهم سواء ، وكان في حياته
ذائع الشهرة ، وكانت كتبه متداولة ، لكنه بعد سنة ١٨٨٨ ترك
نظم الشعر ، ورغم انه توفي سنة ١٩٠٧ أي من عهد غير بعيد ،
فلا يقرأ الناس اليوم شعره كثيراً ، ما خلا يضع قصائد يجدها
الطلاب في كتب المختارات الشعرية ، وإحدى هذه القصائد ، إذا
لم احسن مخطئاً ، قصيدة « الاناء المكسور » التي عربيها بشاره
الحدوري .

وعلى كل فاني لارجو ان تكونوا صادقين في تنبؤكم عن هذا
الشعر ، فيكون خالداً بإذن الله ، لا لأني اضمن بدواوين سولي
برودوم ان تمصف بها ربيع الزمان فتذريها كورق الخريف ، كلا
فان للشاعر الفرنسي رباً يحميه او يتغلى عنه - هو وشأنه . بل
ارجو ان تصدق نبوءةكم لأنكم تكلفتم شيئاً من العناء ، وحملت
مؤونة هذه الغربة الدار : القصيدة الاقربجية المعربة ، فنزعت
عنها الحلة الموشاة التي كان خلعها الاستاذ قياض ، ثم اعدقوها
في زينا الاصلي لتردوها الى اهلها ، كما ترد الامانات ، سامة
غائبة ، ولكن متغيرة بعض الشيء بفعل المناخ ، عافاها الله .
وإذا كان نفر من الناطقين بالضاد قد الفوا هذه الغادة الفرنسية
التي قضت في ربوعهم نحو أربعة عشر ربيعاً ، وشغفوا بمحاسنها
الغريبة حباً ، فلا بأس ان يردعوها بدمعة . قولوا لهم معي
يا سيدي الريحاني :

— عزاء يا اخواننا ! لا يد من ان يرجع الشيء الى اصله ،

مها يطل العهد ويبعد المزار . وإذا كان مكتوباً لهذه الغادة
الحسنة ان تهرم وينذهب جمالها ، فخير لنا ولها ان تكون عند
اهلها ، فان هؤلاء احق بايوائها يوم لا تصلح لشيء .

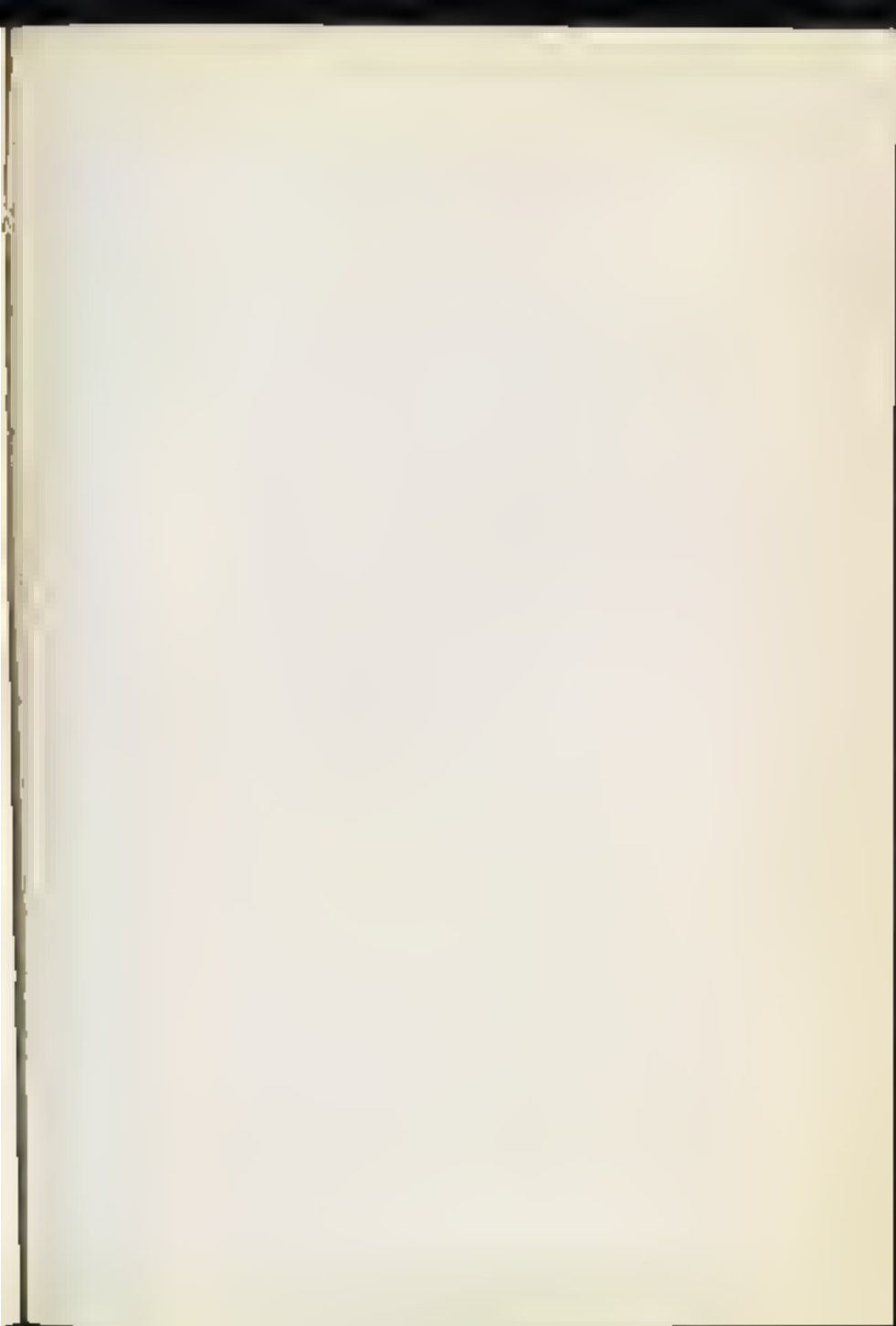


ما العمل يا سيدي ؟ لقد كانت النية ، اذ اردتم اطلاق
القرب على غودج حسن من أدبنا العصري ، حسنة صالحة ، فإذا
لم توفق النية هذه المرة فلأن شيطاني أقصد عملها المشكور ، قاتله
الله وحفظكم الله !

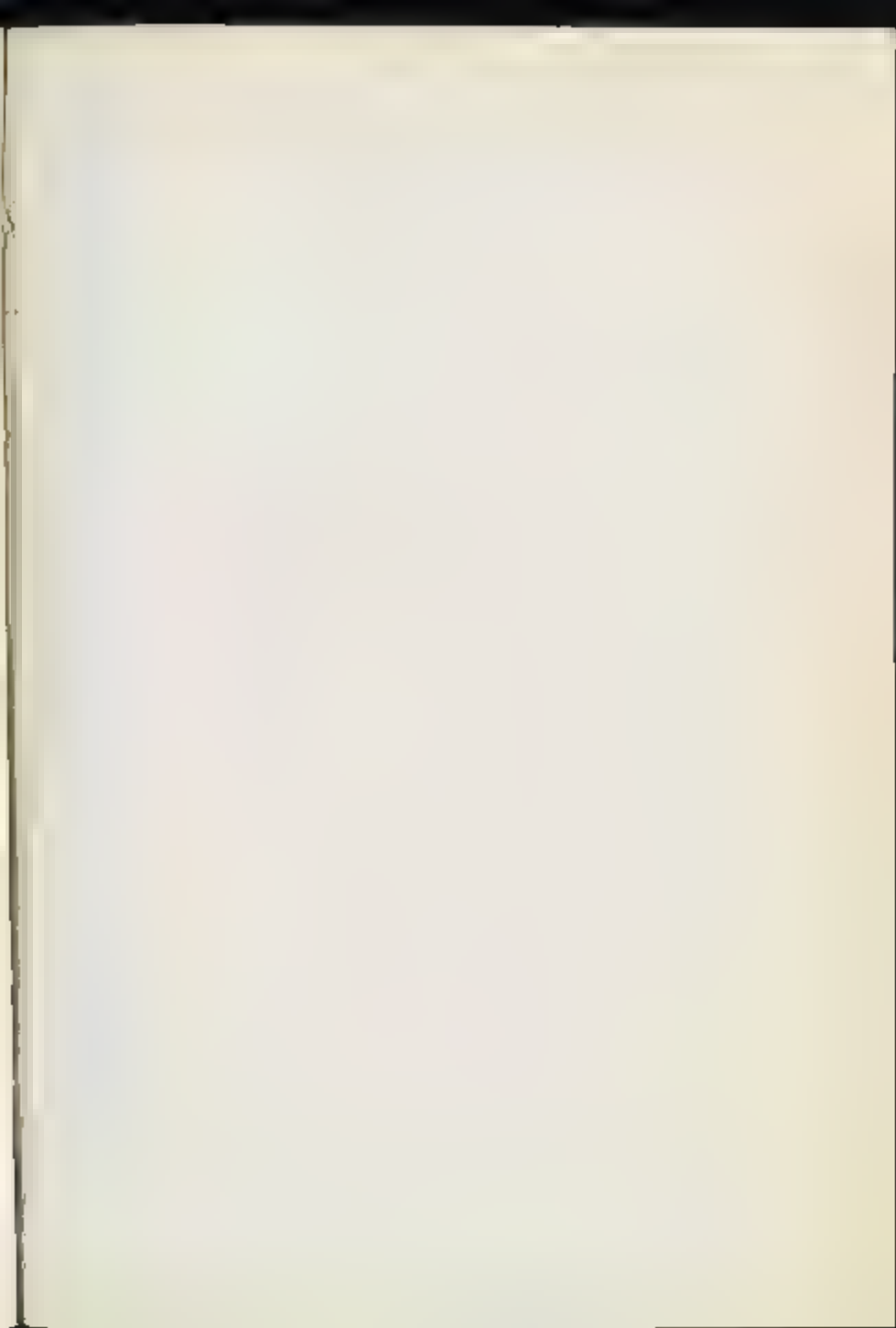
وفي الختام يسألكم الصفح الجميل امروء أراد ان يتشرف
بالكتابة اليكم ، فإذا بمئات من قراء (التديم) حول منضدته
يقرأون من غير استعياض ما يكتب - إذ هذا هو الكتاب
المفتوح على ما يظهر - والسلام عليكم من معجب بكم وبفياض ،
بل بكل نزعة مباركة الى التجديد في عالمنا العربي .

الصالحية في ١ مايس سنة ١٩٢٧

(دمشق)



يوسف غصوب



القصص المجهور

يقول « ريمي دو غورمون »^(١) من نقدة الفرنسيين : « كل
تبديل يطرأ على أدب أمة من الأمم ، فلا بد ان يكون ناشئاً
عن علة خارجية ، او احشوية .

هذا الرأي الحصيف احب ان استهل كلمتي الوجيزة في
المجموعة التي يتحف بها يوسف غصوب^(٢) أدبنا المصري . ولا
ينكر ان الذي يلقبون (او يلقبون أنفسهم) او يلقب بعضهم
بعضاً (بالمجددين هم رهط من الأدباء قاتلوا بالآداب الغربية
قاتلاً بليفاً (او غير بليغ) ذلك هو الواقع الذي لا محيص عنه .

(١) ريمي دو غورمون (١٨٥٨ - ١٩١٥) : اديب فرنسي اشتهر بفن
النقد . دافع عن المذهب الرمزي . من آثاره « تأملات في الحياة » « نزه
ادبية » .

(٢) شاعر كاتب لبناني معاصر له من الشعر مجموعات : « القصص المجهور »
و « المجموعة الملتية » و « قارورة الطيب » و « الابواب المغلقة » .

ولا ينكر أيضاً أن الخلاف بين هؤلاء وبين خصومهم (ويدعون بالمحافظين ، أو بالمقلدين إذا أريد الزاوية عليهم) يقرم على هذه المسألة : هل تورت الآداب الغربية الأدب العربي غنى وغناء وجدة ، أم أنها قد دخل عليه الفوضى ، وتسم بالرطانة ، وتشوه محاسنه ؟

فما انت بضم دعاء التبعيد (أو ادعاءؤه) خصومهم بالتقليد ، لتأثرهم بالآداب العربي التليد - فهو حق وصدق . للمحافظين بعد ذلك ان يقذفوا المجددين بهذه الكرة نفسها ، لتأثرهم بالآداب الغربية الطريفة - فهو عدل وصواب . ولحمد الله على أن الكرة لن تصيب من هؤلاء ولا من أولئك مقتلًا ، والابطل اللامب وخلا الميدان . لكن بين المجددين والمحافظين في تقليدهم جميعاً ، هذا الفرق الطاهر وهو أن هؤلاء يأثروننا بنماذج متشابهة من أمثلة معروفة مألوفة ، في حين أن أولئك يأثروننا على الأغلب بنماذج طريفة من أمثلة غير معروفة ولا مألوفة . وليس كل ما يتحققنا به المجددون من أمثلة غير معروفة « منكراً » .

*

لقد بنى «دوغورمون» رأيه الذي ذكرناه على شواهد صحيحة من تاريخ الأدب الفرنسي. وفي أوروبا اليوم علم قائم بذاته يسمونه «تاريخ الآداب بالمقابلة» موضوعه التأثيرات التي تقايسها الآداب

الإنسانية في مختلف الأزمنة (من هذا التاريخ فصل ضاف في
انفعال آداب الغرب بالآداب الشرقية عامة ، والآداب العربي
خاصة . وقد نجد شيئاً من هذا القبيل في تاريخ أدبنا : العصر
العباسي - الأندلسي الفارسي ، مثلاً) .

فإذا كان الأدب العربي بين أمرين لا ثالث لهما : إما أن يظل
محافظاً يحيا بمبادئه ، متأكلاً بجزئياً ، ويعيد ذاته كرجع الصدى ،
ويتقمص رجاله بعضهم بعضاً ، وإما .. بل ثمة أمر واحد ليس
لأحد في دفعه يدان ، نعتي التبديل الطارىء على أدبنا الحديث ،
بفعل عناصر خارجية أجنبية : ليس الأدب العربي جزيرة في
عرض الأوقيانوس تنتظر كولبوس ، ولا روجنا صخرة
تتحطم عليها هذه الثقافات الغربية الجائحة الفاتحة ، الهائجة
المائجة . وإذا كان التبديل طارئاً على حياتنا في كل مظاهرها ،
فإن نجعل أدبنا كي لا يناله تبديل ؟ هو هذا الطوفان ، و لا
عاصم اليوم .

*

يوسف غصوب أحد شعراء العصر الذين تأدبوا بآداب الفرنجة
واقتبسوا من ثقافتهم . وإن القراء ليجدون في مجموعته هذه
آثاراً واضحة جليلة من قلق الآداب والثقافة . فقصيدة
« الانتظار » مثلاً تذكرنا إحدى قصائد الفرد دو موسى « الأربع
المشهورات » أعني « ليلة أكتوبر » التي يصف فيها الشاعر المدنف
آلام نفسه ولواذع غيرته ، وهو ينتظر حبيبته « الفاجرة »

طوال ليلة من ليالي الحريف حتى اذا وافته ضجى ، خاطبها بمثل
قول شاعرنا العربي :

بيننا مهجتي قدوب انتظاراً
هي في خمرة وفي أوتار
وشف اللهب في قراعي حبيب
ضم من جسمها شرارة نار ..

ولله ما أقرب الشبه بين أمنية يتمناها يوسف غصوب في قوله :

هذه غاية الاماني اهلا
رقدة في ظلالها بسلام
تتلاشى نفوسنا في هدوء
دوت ما حصره ولا آلام
مثلما تفقد الزهور شذاها
حائضات في جنة الاحلام^(١)

وبين مثل هذه الامينة للشاعر الفرنسي Albert Samaint^(٢)

القاتل :

Oh ! s'en aller sans violence
Évanouir sans qu'on y pense
D'une suprême défection
Silence .. Silence .. Silence ..

(١) حائضات : ادركها حينها اي موتها .

(٢) البير سامان « ١٨٥٨ - ١٩٠٠ م » : شاعر فرنسي ، سرى اثره الى

طائفة من شعراء لبنان المحدثين .

ليست هذه الهنات مما يحمل على الظن بأن يوسف غصوب قد احتذى عن رويّة تلك المثل الشعرية ، أو انه يحتذى أي مثل غيرها ، سواء من أدب العرب أم من أدب الفرنسيين . واحسب ان لا داعي الى القول اني عرفت شاعراً مطبوعاً قريباً به كرامته وكرامة الشعر عنده ، عن تقليد الاولين والآخرين ، بل عن مجازاة الشعراء الذين يحبهم حباً جماً ويعجب بهم اعجاباً لا حد له . كذلك فان تأثره بالأدب الغربي أبلغ من ان يقصر على هذه الظواهر ، وأعم من ان يحصر في حوادث مفردة .

من آثار الأدب الغربي في شعر يوسف غصوب هذه الوحدة ، معنى ومبنى « التي يحدها القارىء في مجموعته القصص المجهور (وايت الوحدة مما يباهي به الأدب العربي آداب الأهم الأخرى) حتى ليصح القول انها قصيدة واحدة . وفي هذه القصيدة قصة نفس قلقة موحشة في حياة غير موآتية ولا راضية تحس نقص الحياة وعدم موآاتها احساساً موجعاً ألياً ، فهي تفر من هذه الدنيا المملة المهرنة ، لائذة بجنة الاحلام ، حيث الهناء المقيم والراحة الشاملة . وهي لعمري قصة النفس الإنسانية على اطلاقها ، من البداية الى النهاية ، تقصها علينا الاديان تارة والفنون تارة أخرى - النفس الإنسانية التي لا تفتأ تنقل ظلماتها الى النعيم ، من سراب الى سراب لا تروي ولا تبرد غلتها ، حتى تقع على السراب الأعظم . . جزى الله الأنبياء والشعراء عن البشرية كل خير ، فهم المعزون بصور الكمال ، في الدنيا وفي

الآخرة . ولمذا نقول ان لشعر يوسف غصوب دلالة إنسانية
بليغة عامة ، وهي أول مزاي الشعر وسائر الفنون

*

من الألفاظ الشائعة عند الفرنسيين : « شقيقة النفس
âme - sœur » وهم يعنون بها ما يقوله الشاعر في قصيدته
« وحشة القلب » :

برأ الله أنفس الناس أزواجاً تداعى ، فكل نفس لنفس ..
ولقد كنت احسب هذا الاصطلاح غريباً على اللغة العربية
حتى قرأت قول أبي نواس (او قول والبة ابن الحباب)^(١) لأبي
نواس في رواية) :

با شقيق النفس من حكم
نمت عن ليسي ولم أنم

بل أعجب من هذا قول أبي نواس ايضاً في موضع آخر :

وشقيقه النفس التي حجبته
عن ناظريك ...

فهو يمثل ما نحن بصدده أجود تمثيل ، لولا انه عني الحمد .

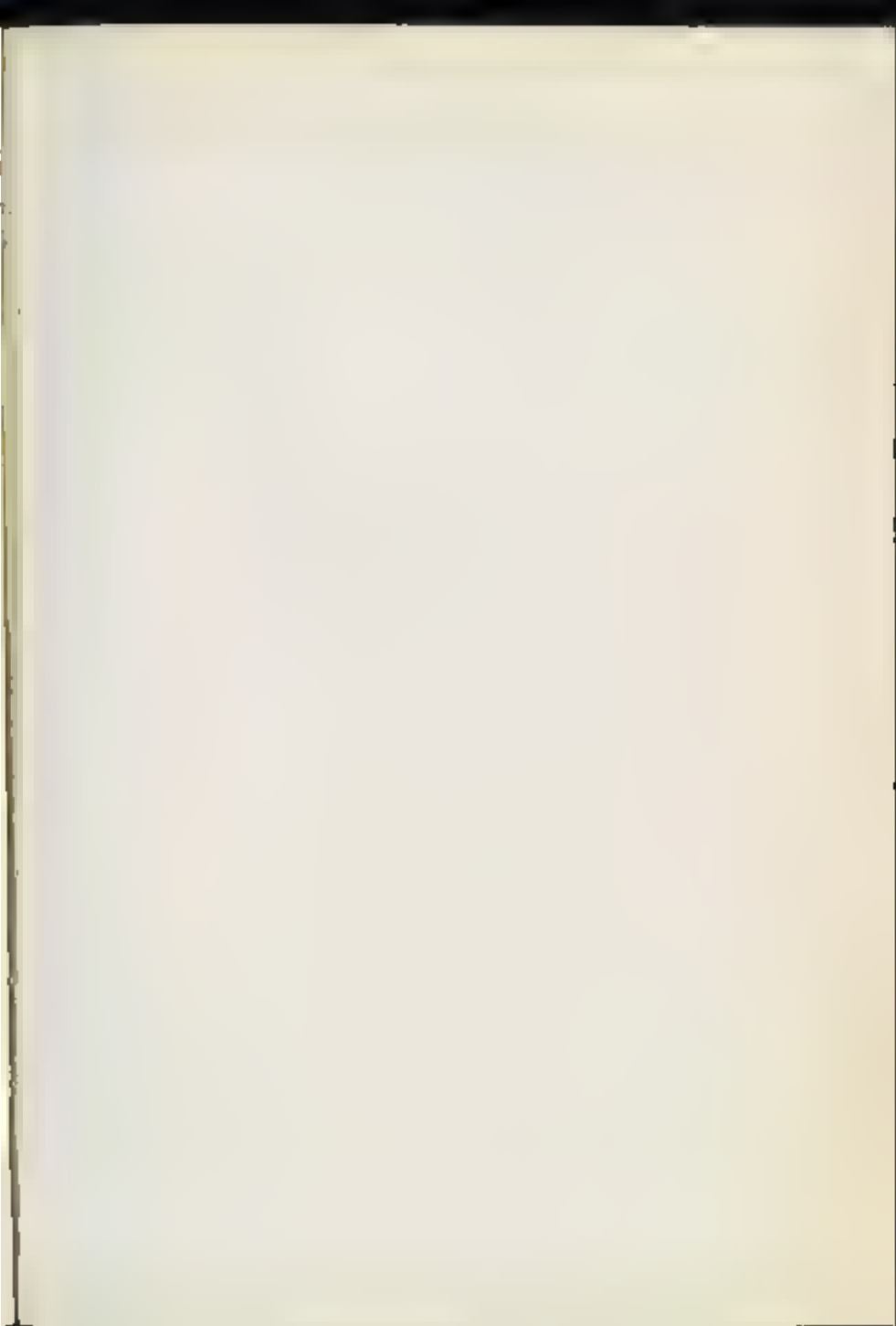
(١) والبة ابن الحباب الاسدي : شاعر عربي عباسي ، عاش في القرن الثامن
الميلادي ، الثاني الهجري ، لقيه ابو نواس في مطلع الفتوة . وكان لوالبة
ازوه في توجيهه نظر الجرون .

ولكن هل الحب والخمر والإيمان الا مهبل متفرقة ، يسلكها
الناس الى غاية واحدة : النعم ؟

ولا بد هنا من القول ان تلك الآثار من الآداب والثقافة
الغربية التي يجدها القارئ في شعر يوسف غصوب ليست بضائفة
اسلوبه في شيء ، فهو اسلوب عربي مبدع ، لا سمة للمعجمة عليه .
ولقد وفق هذا الشاعر الى حسن الملازمة بين معانيه ومبانيه
(ليس حسبنا ان يكون ثمة انسجام في الألفاظ وانسجام في
المعاني ، بل ينبغي ايضاً ان يكون الانسجام بين المعاني والمباني) .
زد على ذلك ان له حظاً من الموسيقى اللفظية غير يسير يهيء
نفس السامع ويجهده في « الحالة الشعرية » الخاصة ، وانه مقتصد
في الكلام يرمي على الاغلب اتمام لطيفاً ويوحى وحياً خفياً ،
لكن لهذا الوحي في جوانب النفس اصداء شتى بعيدة القرار .



هذا .. وبعد فان (القفص المهجور) حادث ادبي ذو شأن :
زهرة نضرة في هذه الايام الجديدة ، في ببداء حياتنا الادبية ،
وزهرة واحدة - في عالم الشعر - تكفي لان تملأ البادية أرجاء
طبيعاً ، وحسناً فاتناً ، وحياة بهيجة . ان في هذا الديوان الفريد
لعزاء لنا عن كثير من رزاياها ، لا سيما تلك القصائد والدواوين ،
التي (نطعن) بها كل حين ، وللشمر اول المرزوقين ، اجارنا الله
واياه - آمين .



المأدبة

لا مأدبة افلاطون أعني ، ولا المأدبة التي أديها ليوسف
غصوب منذ بضعة أيام اخوانه الأدياء - كدت أقول: الأديون -
ولم يدر فيها حوار سقراطي ، لأن سقراطها ما كان . أنا أعني ،
بعد « القفص المهجور » هذه « الموسوعة الملتهية » التي طلعت
علينا كمروس شقراء ، كما جلستها يد الماشطة ، بل الطابعة .

أليس من فضل الله علينا ان يأتينا يوسف غصوب داعياً ،
كرّة بعد كرة ، الى احدى المآدب الملكية التي يأديها الشعر
لابنائنا - صفوة الخلق ، والتي لا تعدل لذاتها عندي لذة ما
بلغت ، في هذه الحياة الدنيا . فإذا على تلك المائدة السنية كل
فاخر وطريف ، وكل شهي مستلج ، وكل حسن معجب .
كيف لا ؟ وهذه الألوان النفيسة من طعام وشراب ، وازهار
والوار ، وآنية - أقسم انها لما أعدده جن عبقر لتطوف علينا

به ملائكة الجنان » بقضاء من مالك السموات والارضين .

وقديماً كنت أتعاطى مع الشعراء الشعر كما يتعاطى الندامى المدام ، فلا أتعدى في غي « حدود الوقار . بل وقع لي مرة أو مرتين أن اخذ مني السكر حتى خرجت الى السوق متفتياً بقصائد شاعري المختار ، مغربداً . ولكفي على الاغلب كنت امكث في مجلسي كالمشده ، في عينيه رؤى الدهر من ذلك العالم الآخر .

وبين عشية وضحاها سولت لي النفس الامارة تجارب سوء في النظم ، فسقطت في حمأة الخطيئة ، اذ نظمت ، ولا فخر ، قصائد مطوية منسية ، بل « ارتكبت ، وهو الاصح ، بعض ابيات دارسة طامسة . ثم لم البث ، لعسن الطالع ، ان ثبت توبة نصوحاً ، فكنت كماصر الحجر الذي ما كاد يختم زجاجته ليقربها قرباناً على انها « لذة للشاربين » حتى كتب عليها : « خل » واللاهها في زاوية المطبخ .

ولقد كنت قبل عهدي بالنظم فني كالفتيان « مولماً بأعمال المجد والقروسية « لم توافقه احوال الدنيا ليكشف عن سريره بعمل مجيد او مأثرة غراء في احدى نواحي الحياة . فلما لم يجد صبراً على لجاج هذه الحاجة الملحاح ، عكف على قراءة سير

(١) العمل في الشراء قبل اشتداد السكر .

الابطال وقصص الفرسان خداعاً لنفسه وتوحيماً عليها ، يغير غاراته الشعواء في عالم الخيال . واستمر على ذلك زمناً ، حتى جمعته الاقدار « دون كيخوتي »^(١) الذي خرج من قريته شاكياً السلاح ، مغامراً مفاخرأ ، فلما لم يلق من يحاوله ويناضله ويقاؤه اغار على طاحون الهواء - وكفى الله المؤمنين القتال ولست اذكر هل اسعد العظم « دون كيخوتي » في حياته ، او في حكايته ، بفارس متقار يعمل في جثائه الحق لا الباطل ، سيفه او رمح طعناً وضرباً ، لكنه بعد موته بقرون ، ظفر في ضمير ذلك الذي كتبه ، بعنقورة^(٢) المتحرك في اهابه ، فقتله شر قتلة : لقد شفاني من داء البطولة .

وما كدت ارتاح من عجاج عنقورة حتى تحرك في « السندباد^(٣) » اذ اصبحت يمثل التناسخ ، ففى يقضي وقته على أهبة الطواف حول الارض ضارباً في مجاهلها ومعالها ، جواباً تتقاذفه الفلوات

(١) دون كيخوتي : شخصية روائية خلطها الاديب الاسباني سوفتس (١٥٤٧-١٦١٦ م) وحمل منها شخصية النموذجية العالية . لانيان متماق بعصر الفروسية بينما يحصره قد اختلف . فامتزجت في حياته المأساة المفجعة بالمهابة المضحكة .

(٢) عنقورة العنسي : شاعر . فارس جاهلي . اسعد اصحاب الطفلات السبيع . عاش في القرن السادس الميلاد . كان عبداً اسود اللون اشهر ببطولته وجره لاية عمه عبلة .

(٣) السندباد : شخصية اسطورية . يظل رحلات ومغامرات مروية في كتاب الف ليلة وليلة .

والخواضر . فكنت في ذلك المهد السعيد وقصاري قراءة
كتب الاسفار آناء الليل ، ورحلة بالترام على خط المنارة ذهاباً
وابائاً ، اطراف النهار . ولا اعلم من قتل في نفسي هذا السندباد
الذي لم يكن برياً بعصرف ، ولا بحرياً بوصف ، ولا جويماً على
التاكيد . المهم انه لعق بعنقته في عالم الذكرى

كما قرعنا بالاياب المسافر .

ويلوح لي ان في نفس كل امريء ثلاث جنث من هذا النوع
على الاقل : عنقرة عيس ، فسندباد الف ليلة وليلة ، فمجنون
ليلي ، في ثلاثة اضرحة ، مكتوب على قبرياتها : « هو الحي
الباقى ! » دون تاريخ .

فلا عجب اذا قلت الآن اني اصبحت في النظم ثالث ذينك
الرجلين او صنوهما : يتلجلج الشعر في خساطري ويتلثم به
لساني ، ويحم بي وأهم به ، ثم قدركني رجلة ربي فامسك ،
معزياً النفس كلها دعيت الى مأدب الشعراء ، او تطفلت عليها
وكثيراً ما افعل ، بوقفة عند طرف المائدة ، على عتبة الباب .

هكذا كنت على عتبة الباب ، منذ نحو عشرة أعوام ، في
مأدبة د القفص المهجور ، فكنتبت مقدمة تلك المجموعة الاولى
التي نظمها يوسف غصوب . لا أقول هذا مذكراً ، فليس في
الامر كبير طائل ، ولكن المجموعة الثانية « الموسوعة الملتهبة »

التي اتحفنا بها الشاعر بعشت الساعة ، في خاطري ، صوراً غامضة
من ذلك العهد البعيد ، تتسلل في خفاء الجدران خجلة وجلة ،
بين زخارف العصر الجديد .

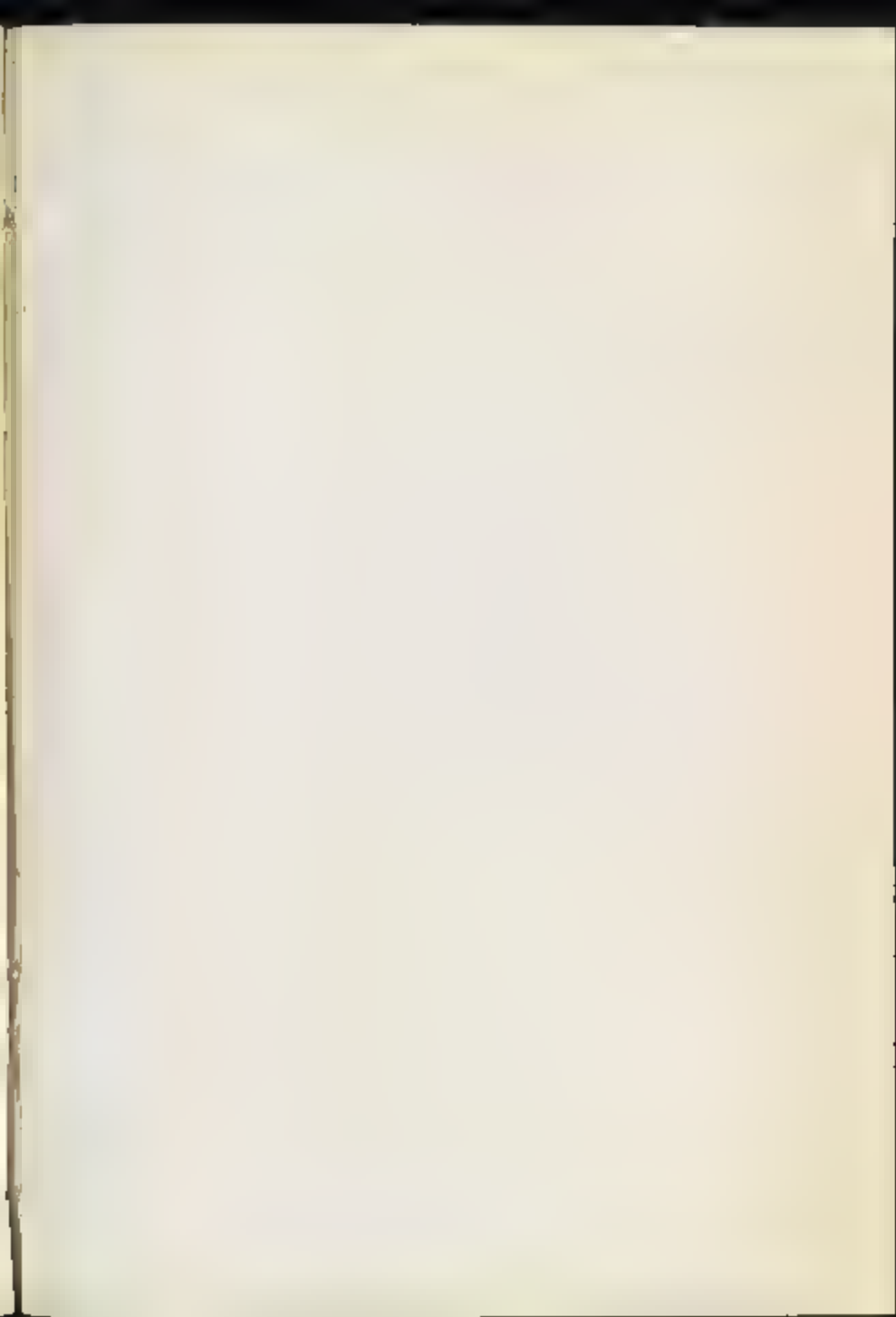
واخال اني كنت يومذاك قادراً على مسايرة الجيل خطوة
خطوة في مناحي أدبه ، فقلت في هذا الشعر ما قلته عن دراية
وبصيرة ، ثم بلغ مني الاعجاب فخرجت من تلك المأدبة الملكية
الى السوق متغنياً بقصائد الشاعر المختار . فعجبذا لو استطيع
اليوم ، وقد مشى الجيل وانا لا ازال في مكاني ، حيث تركني ،
وعلى كاهلي عشرة اعوام ، ان اصطنع العريضة في مأدبة والموسجة
المنهبة ، بل هذا العرس الاشقر ، بلغة العصر .

حسبي اليوم ان امكث في مجلسي ، عند طرف المائدة ، على
عتبة الباب ، كالمشده ، في عينيه رؤى البحر من ذلك العالم
الآخر .

١٩٣٧

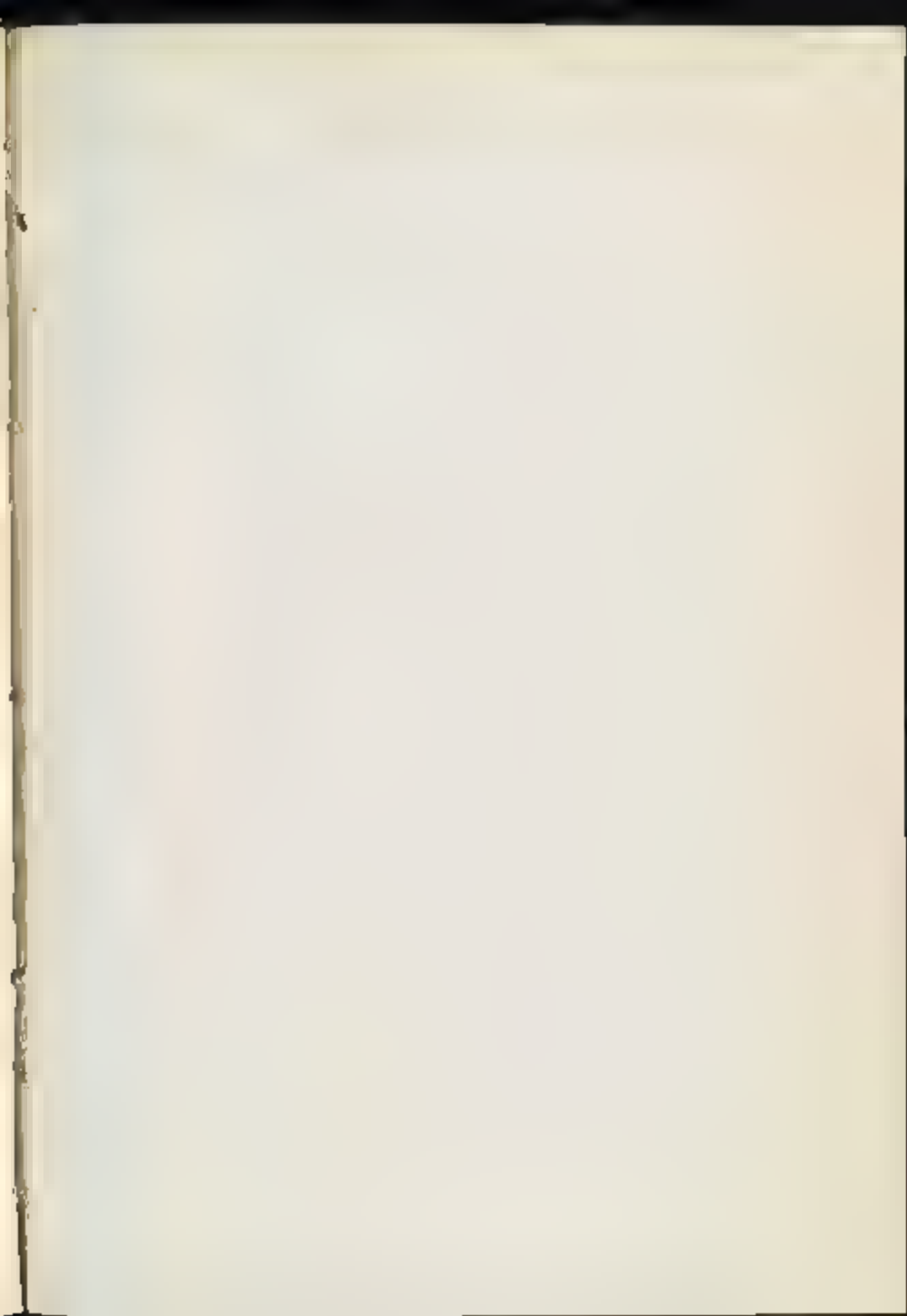
*

١٨٧



فصول الكتاب

٥	المقدمة
٧	الشاعر وأبنائه
١٥	الباب المرحود
٢٣	كنوز الفقراء
٣١	سنين شاعر الشعب
٣٣	١ مقدمة موسعة
٣٧	٢ سنين والشعر القومي
٤١	٣ العمود الهادي
٤٤	٤ حنين والهجر الاجتماعي
٤٧	الاحلام
٦٣	المرأة الجلولة والمرأة الصداقة
٨٧	فصل من كتاب الشيطان في الالهام الشعرية
١١٩	الشاعر الشهيد
١٢٧	الشاعر في السوق
١٣٥	ساعة مع العاملي
١٤٣	الشعر والدماء
١٥٥	بين شاعرين
١٥٧	١ سولي برودوم والياس فياض
١٦٥	٢ كتاب مفتوح
١٧٣	يوسف غصوب
١٧٥	١ القفص المهجور
١٨٣	٢ المأذبة





مطبعة معتوق اخوان

بيروت - شارع احمد الشدياق



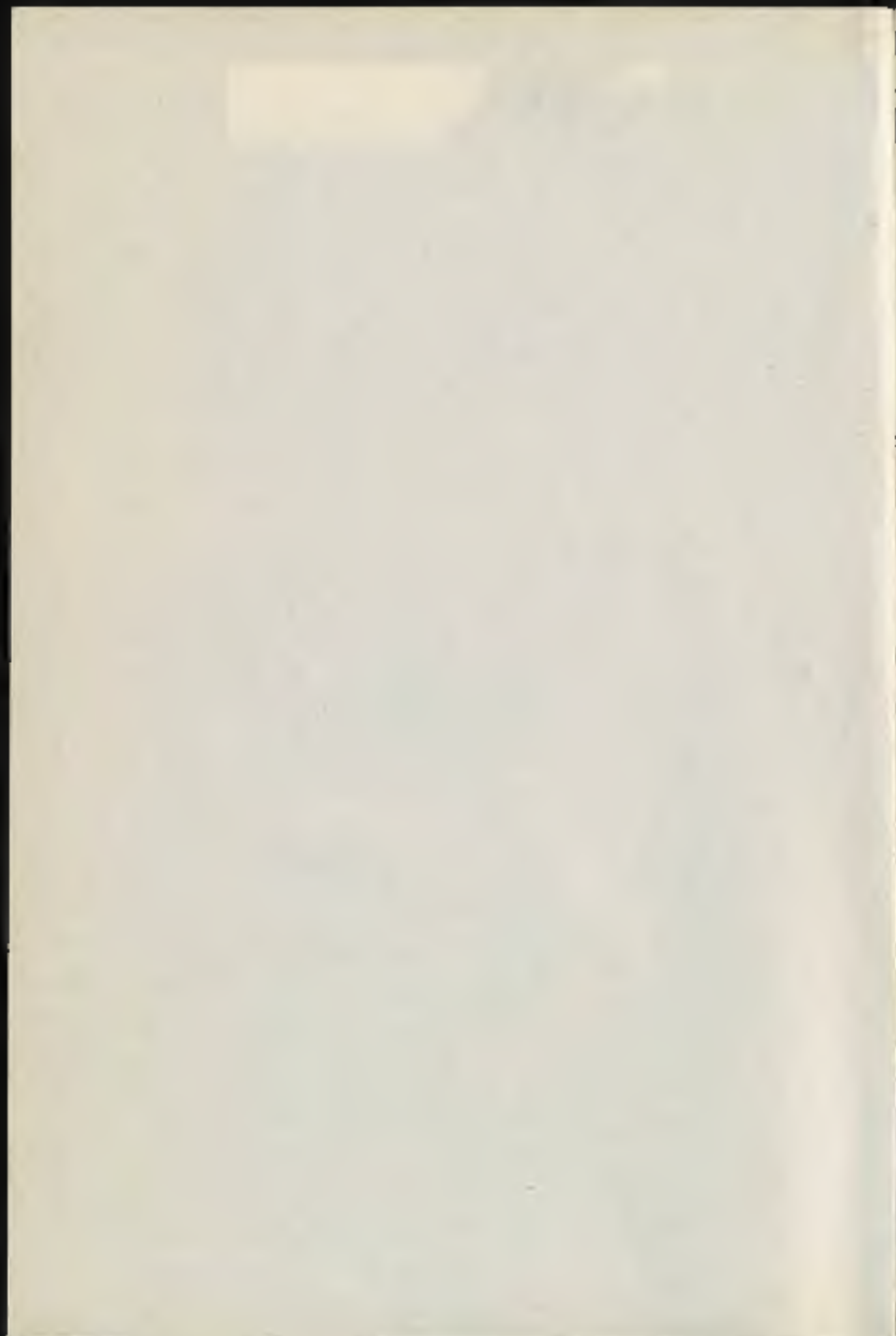
اشهر مؤلفات عمر فاخوري

صدر منها

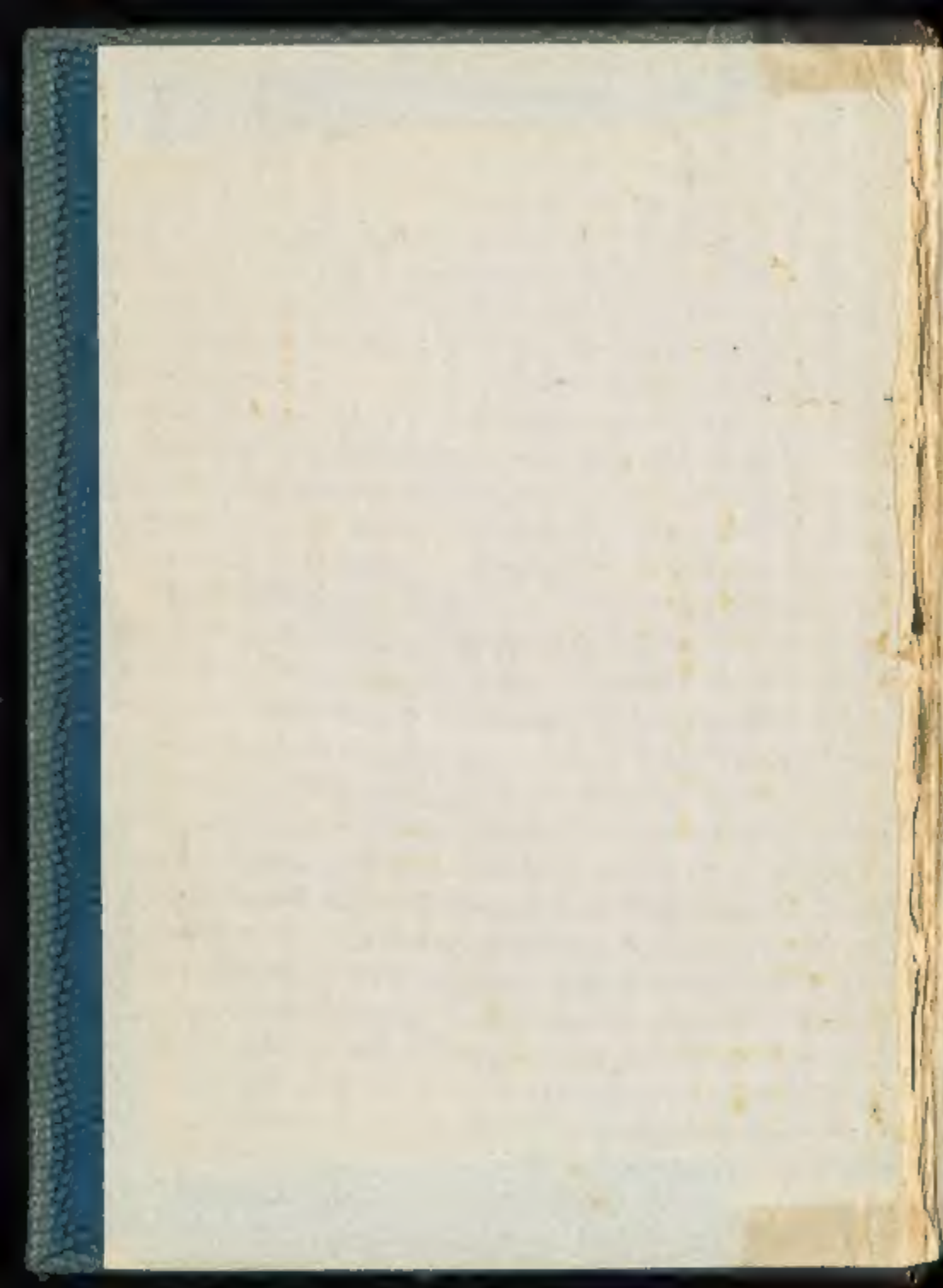
- « الباب المرصود »
- « الفصول الاربعة »

يصدر قريبا

- كيف ينهض العرب
- لاهواده
- اديبه في السوق
- الحقيقة اللبنانية
- الاتحاد السوفياتي حبر الزاوية
- حياة المهاتما غاندي ، معربا عن رومان رولان
- اراء اناطول فرانس ، معربا عن اناطول فرانس
- كرانكبييل ، معربا عن اناطول فرانس
- اراء غربية في مسائل شرقية







NYU - EC687



31142 02685 2401

PJ7824.A4 B3 1937

al-Bab al-